

## الفصل الرابع

### بيان الموقف الحق - إن شاء الله تعالى - في مواجهة أنواع الغزو الموجهة إلى ديار المسلمين

وأصحاب هذا الموقف هم الذين وفقهم الله ﷻ للفهم الصحيح والقصد الحسن، وجنبهم تلك المواقف السابقة الذكر، فأحسنوا الظن برهيم وتحقيق وعده بالنصر للمؤمنين، فلم تساورهم الوسوس والشكوك، ولم ييأسوا ويصيبهم الإحباط والضعف والاستكانة، وكذلك لم يهزموا أمام ضغط الواقع وشدة الابتلاء، فيتنازلوا عن أصول دينهم وثوابته، بل ثبتهم الله ﷻ وقبضوا على دينهم كالقابض على الجمر، وكذلك حماهم الله ﷻ من الاستعجال في الأمور قبل أوانها، ووفقهم لفقه الموازنات وفهم مقاصد الشريعة، كذلك برأهم الله من مواقف المنافقين والمرجفين، ومواقف أهل الدنيا الراكنين إليها الذين لا هم للدين وأهله في نفوسهم.

والحاصل أن الله ﷻ هداهم لصراطه المستقيم في العلم والعمل صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وامتثلوا قول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]،

وقوله - سبحانه -: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]، وقوله - تعالى -: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الحاثية: ١٨]، وقوله - تبارك وتعالى -: ﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴾ ٤١ ﴿ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ ٤٢ ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤١-٤٣].

هذه أوصافهم على الجملة إذ هم الأتقى والأنقى والأقوى، الأتقى فهم المخلصون، والأنقى فهم المتبعون، والأقوى فهم المتوكلون على الله الآخذون بالأسباب، أما على التفصيل فهم الذين تحققت فيهم صفات الناجين من الخسران الواردة في سورة العصر، قال الله ﷻ: ﴿ وَالْعَصْرُ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣]، حيث إنهم كملوا أنفسهم بالعلم والإيمان والعمل الصالح، وكملوا غيرهم بالتواصي معهم بالحق واجتماع الكلمة على الدعوة والجهاد والصبر على ذلك، والذي يهمننا هنا هو الحديث عن دور هؤلاء الموفقين في التواصي على الدعوة والجهاد ومدافعة غزو الكفار والمنافقين لبلاد المسلمين عسكرياً وفكرياً وسلوكياً.

وقد تبين لنا في المباحث السابقة ذلك المكر الكبار، والكيد العظيم، والغزو الخطير، الذي يقوم به أعداء الإسلام وإخوانهم من المنافقين في احتلال بلدان المسلمين، ومحاولتهم مسخ هوية المسلمين وعقيدتهم، وفرض أنماط الغرب السلوكية والتغريبية في حياتهم. ومن أجل ذلك

هـب هؤلاء المجاهدون للتصدي لهذه الأنواع من الغزو كلاً بما يحسنه  
ويقدر عليه، هذا بلسانه وحسامه، وذاك بعلمه وبيانه، وآخر بتربيته  
وتحصينه واحتسابه على المنكرات، ورأوا أن لا خيار لهم في ذلك بعدما  
سمعوا قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ  
انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؕ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ  
الْآخِرَةِ ؕ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ (٣٨) **إِلَّا**  
تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ  
شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (٣٩) **إِلَّا** تَنْضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ  
إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ  
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ  
وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (٤٠) **انْفِرُوا**  
خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؕ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ  
لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ [التوبة: ٣٨-٤١] .

وهذه الآيات وإن كانت قد نزلت في لوم المتخلفين عن الجهاد في سبيل  
الله ﷻ بالسنان، فأحسب أنها عامة في جميع أنواع الجهاد المتعين (الجهاد  
بالسنان، والجهاد بالبيان، والجهاد بالتربية والدعوة ومحاربة الفساد).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد منه ما هو باليد،  
ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان، والرأي والصناعة، فيجب

بغاية ما يمكنه<sup>(١)</sup>. وعليه فإن التقاعس والتباطؤ أو التخاذيل عن القيام بهذه الأنواع من الجهاد يكون داخلاً تحت الوعيد الوارد في هذه الآيات ولا يبعد أن يكون أيضاً ممن عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فاختريا عبد الله أي نوع من الجهاد تحسنه فانفر إليه، فإنه لا يعذر في هذه النوازل قاعد، ولو كان عامياً لا يقرأ ولا يكتب، يقال له: جاهد بربيتك لأهل بيتك، وتحصينهم من الفساد، وبلغ من تستطيع من الجيران والأقارب، فهذا منك جهاد.

ولقد أدرك الموفقون من عباد الله ﷻ خطورة القعود عن نصره دين الله ﷻ فنفرت طوائف من هذه الأمة كل بحسبها، وبما تقدر عليه من أنواع الجهاد في مدافعة الصائل على البلاد والعباد والعقائد والأخلاق، فكان منها طائفة تصدت للغزو العسكري بجهاد اليد والسنان، وطائفة تصدت للغزو الفكري والعقدي بجهاد العلم والبيان، وطائفة أخرى تصدت للغزو السلوكي والتغريبي بجهاد التربية والتحسين والاحتساب، وذلك حسب التفصيلات الآتية:

(١) «الاختيارات الفقهية» (ص ٤٤٧) (نشر دار العاصمة).

## التصدي للغزو العسكري من الكفار على بلدان المسلمين

ويتم هذا بإعلان فريضة الجهاد باليد والسنان على الكافرين، وصدهم عن بلاد المسلمين بكل ممكن، وهذا هو جهاد الدفع الذي تقرر عند أهل العلم في القديم والحديث: أنه فرض عين على أهل كل بلد يغزوهم الكفار في عقر دارهم، حيث يجب على كل قادر مكلف في هذه البلدان: أن ينفر لصد العدوان وقتال الكفار المعتدين، حتى يندفع العدو عن أرض المسلمين بالمال والنفوس، ويجب على بقية بلدان المسلمين أن ينصروا إخوانهم في بلدانهم المغزوة، بأن يمدوهم بالمال والسلاح والرأي والمشورة والدعاء، وإذا لم يكف المقاتلون في البلد المعتدى عليه في صد العدوان وجب على من يليهم من بلدان المسلمين نصرتهم بالرجال حتى تحصل الكفاية، كما يجب عيناً على من كان من المسلمين ذا خبرة عسكرية في أي فن من فنون القتال، أو ذا خبرة إعلامية وعلمية لم تحصل بها الكفاية عند المجاهدين أن ينفروا لنصرة إخوانهم، وهذا ما قرره أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: (وإذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة)<sup>(١)</sup>.

(١) «الاختيارات الفقهية» (ص ٤٤٨).

ويقول الإمام محمود الألوسي رحمه الله في مخطوطة له عن الجهاد وهي تحت الطبع: (فإن كان كذلك بأن هجموا على بلدة من بلاد المسلمين فهو فرض عين اتفاقاً من الجمهور وابن المسيب، سواء كان المستنفر عدلاً أو فاسقاً، فيجب على جميع أهل تلك البلدة أن ينفروا، وكذا من يقرب منهم إذا لم يكن بأهلها كفاية، وكذا من يقرب ممن يقرب منهم إذا لم يكن بمن يقرب منهم، كفاية أو تكاسلوا أو عصوا، وهكذا حتى يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً، كذا قال غير واحد من العلماء الأعلام)<sup>(١)</sup>.

وإن من عجائب زماننا، والعجائب جمة أن يقال عن الجهاد في تلك البلدان المحتلة ودفع الكفار عنها أنه قتال فتنة، وأن النافرين إليه دعاة فتنة وإرهاب!! سبحانه هذا بهتان عظيم. أهذا جزاء من يدافع عن المسلمين ودينهم وأعراضهم وأموالهم وديارهم؟ أهذا جزاء من يسعى لرفع الذلة والمهانة والاضطهاد عن المسلمين؟ أهذا جزاء من ترك أهله ووطنه حاملاً روحه في كفه، يبتغي مرضات الله ﷻ وجنته بنصرة دينه ومقاتلة أعدائه.

إن الواجب علينا أن نحمد الله ﷻ ونشكره على أن قيض من شاء من عباده للقيام بفريضة الجهاد في سبيل الله ﷻ وسلطهم على أعدائه، ليحولوا بينهم وبين تحقيق أهدافهم الخبيثة، فحق إخواننا المجاهدين نصرتهم، والوقوف معهم في جهادهم بكل ما يحتاجونه من مال ورأي وإعلام ودعاء والذب عن أعراضهم، فبجهادهم أخرج الله ﷻ الغزاة الروس من بلاد الأفغان، وبجهادهم أحبط الله ﷻ خطط الأمريكان،

(١) «سفرة الزاد في سفرة الجهاد» (للألوسي) (ص ٥).

ومن ساندتهم من الغرب والعرب في تقسيم بلاد المسلمين وتغيير خارطة البلدان الإسلامية بما يسمى بالشرق الأوسط الكبير، وبجهد المجاهدين لم يقر للغزاة قرار في البلدان التي غزوها، بل هم في رعب وعدم استقرار، وبجهد المجاهدين أنزل الله بهم الخسائر العظيمة في الأرواح والأموال.

لقد خرجت أمريكا من ديارها بطراً وكبراً ورثاء الناس، وهم يقولون من أشد مناعة؟ فاستباح ديار المسلمين، واحتلت أفغانستان والعراق، وبشروا بمشروع الشرق الأوسط الكبير زاعمين أنهم سيجعلون العالم أكثر أمناً واستقراراً، فغداً أشد خوفاً ورعباً وأنهم سيضعونه أكثر رهاً فغداً أشد فقراً. وكانوا يظنون أن احتلال هذين البلدين سيكون نزهة سريعة يعودون بعدها بالثروات العظيمة من الغاز الطبيعي في أفغانستان وحقول النفط في العراق والخليج، وسيعودون بالآلاف المليارات التي تعوض خسائرهم وها هم يتجاوزون العقد من الزمان في غزوهم، وها هي غطرستهم وقوتهم وكبرياتهم تتحطم وتنهار على يد من احتقرتهم في أفغانستان وسخرت منهم في العراق، وأصبح المجاهدون على ضعفهم وقلة الناصر لهم غصة في حلوقهم، تلحقهم الهزائم يوماً بعد يوم، حتى قصمهم الله ﷻ بانتهيار اقتصادهم انتصاراً منه سبحانه لعباده المؤمنين، فجزى الله المجاهدين عنا وعن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها خير الجزاء، فلقد كانوا سبباً رئيساً فيما لحق ويلحق بالأمريكان وحلفائهم من الهزائم والانهيارات المتلاحقة والحمد لله.. فهلا قدرنا للمجاهدين حقهم وعرفنا قدرهم وقمنا بنصرهم ودعمهم؟ وحتى لا يأتي آت ويستخف

بهذا الكلام، أسوق ما ذكره مكتب خدمات البحث بالكونجرس الأمريكي من إحصائيات عن خسائرهم في حرب العراق فقط، وذلك في مجلة الفورن بوليسي (نقلاً عن قناة الجزيرة).

|                                      |                                      |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| في عام ٢٠٠٣                          | كانت الخسائر (٩٣٠٠٠ دولار) كل دقيقة  |
| في عام ٢٠٠٤                          | كانت الخسائر (١١١٠٠٠ دولار) كل دقيقة |
| في عام ٢٠٠٥                          | كانت الخسائر (١٦٤٠٠٠ دولار) كل دقيقة |
| في عام ٢٠٠٦                          | كانت الخسائر (١٨٨٠٠٠ دولار) كل دقيقة |
| في عام ٢٠٠٧                          | كانت الخسائر (٢٤٥٠٠٠ دولار) كل دقيقة |
| في عام ٢٠٠٨                          | كانت الخسائر (٣٧١٠٠٠ دولار) كل دقيقة |
| أي ما يقارب مجموعه (٧٠٠ مليار دولار) |                                      |

مع أن الخبير الاقتصادي الأمريكي (جوزيف ستيجلير) قدرها بأكثر من ذلك بكثير، حيث أوصلها إلى (٣ ترليون دولار).

أما إحصائيات حربهم المزعومة على الإرهاب حسب ما جاء في المجلة نفسها فهي كالآتي:

|             |                      |
|-------------|----------------------|
| في عام ٢٠٠١ | كانت ١٨ مليار دولار  |
| في عام ٢٠٠٢ | كانت ١٣ مليار دولار  |
| في عام ٢٠٠٣ | كانت ٥٤ مليار دولار  |
| في عام ٢٠٠٤ | كانت ٧٤ مليار دولار  |
| في عام ٢٠٠٥ | كانت ١٠٠ مليار دولار |
| في عام ٢٠٠٦ | كانت ١١٦ مليار دولار |

|                                |             |
|--------------------------------|-------------|
| كانت ١٦٦ مليار دولار           | في عام ٢٠٠٧ |
| كانت ١٩٥ مليار دولار           | في عام ٢٠٠٨ |
| أي ما مجموعه (٧٣٦ مليار دولار) |             |

وقد كانوا يعلمون أن هذه الأموال الهائلة ستؤثر على هيكله الاقتصاد الأمريكي كله، وأنه سيكون على حساب الإنتاج المدني الداخلي، ولكنهم كانوا يراهنون على أن احتلال أفغانستان والعراق سيكون سريعاً، وسيعوضون خسائرهم بوقت سريع، فلم يمهلهم المجاهدون ليستردوا ذلك، وها هم يسرون من هزيمة إلى هزيمة وهذا من رحمة الله ﷻ وفضله، ثم فضل الجهاد وما قام به المجاهدون الأبطال من مقارعة القوم والإثخان فيهم، وردهم على أعقابهم خائبين. وقد كانوا مغرورين بقوتهم ناسين قوة الله ﷻ فأنساهم سبحانه، وأغفلهم عما يترتب على حماقاتهم من الكوارث والانهيارات، فدفعهم الله ﷻ دفعاً إلى نهايتهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ بِكَ اللَّهُ رَحْمَىٰ وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنَاتٌ﴾ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[الأنفال: ١٧].

ولقد حق عليهم قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿[الأنفال: ٣٦].

والمجاهدون غيرهم من البشر يخطئون ويصيبون وليسوا بمعصومين، وقد يبدر من بعض أفرادهم أخطاء ومخالفات، وحينئذ نحن

مأمورون وملزمون بالمنهج الشرعي في التعامل مع الأخطاء ومرتكبيها. المنهج الذي يقوم على التثبت أولاً من وقوع الأخطاء وتوثيقها، ويقوم ثانياً على التفريق بين كون المخالفة خطأً فردياً أم منهجاً عاماً، ويقوم ثالثاً على العدل والإنصاف وعدم بنخس المجاهدين حقوقهم، وذلك بأن لا تنسينا الأخطاء ما قدموه ويقدمونه من بذل وتضحيات ونكاية بالأعداء الغزاة، مما نحسبه في سبيل الله ﷻ.

كما أن هذا المنهج يراعي فقه الموازنات وتعارض المصالح الفاسدة؛ أي أن مناصحة الدعاة والمجاهدين بعضهم مع بعض يجب أن يراعى فيها الحرص على اجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف، كما يجب أن يراعى فيها التوقيت وأسلوب النصيحة وظروف الأمة وقوتها وضعفها، بحيث نقطع على خصومنا من الكفرة والمنافقين من توظيف ذلك في صالحهم، كما هو الواقع اليوم فلا يصلح أن تكون المناصحة في هذه الأحوال في منابر عامة، وإنما ينبغي أن يكون بصفة خاصة بين المتناصحين بشفقة ورحمة.

ويحسن في هذا المقام أن أنقل ما كتبه منذ عدة سنوات عن هذا الشأن في مقالة بعنوان (المنهج القرآني في التعامل مع أخطاء المجاهدين)، وكان مما جاء فيها:

(وقفت في كتاب الله ﷻ على آيات كريمة عظيمة ترسم لنا المنهج الحق العدل في التعامل مع أخطاء المجاهدين، دون إفراط ولا تفريط، ودون أن يوظفها العدو في صالحه، وهذه الآيات هي قوله -عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهُ وَكُفْرُ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة: ٢١٧-٢١٨﴾.

وقبل أن نقف عند الدروس من هذه الآية وما فيها من منهج حاسم في التعامل مع أخطاء المجاهدين وأعداء المجاهدين، يحسن بنا أن نقف على سبب نزول هذه الآيات، كما جاءت في كتب التفسير.

قد جاء في روايات متعددة أنها نزلت في سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه وكان رسول الله ﷺ قد بعثه مع ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار، ومعه كتاب مغلق، وأمره ألا يفتحه حتى يمضي ليلتين، فلما فتحه وجد فيه: «إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا، فَاْمْضِ حَتَّى تَنْزِلَ بَطْنَ نَخْلَةٍ - بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ - تَرُصِدُ لَنَا قُرَيْشًا وَتَعْلَمُ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ.. وَلَا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى الْمَسِيرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ» - وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى. فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة.

ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منها بخبر. وقد نهى أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأنا ماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه،

لم يتخلف أحد منهم. فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما فتخلفا عن رهط عبدالله بن جحش؛ لبيحثا عن البعير ومضى الستة الباقون. حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتلت السرية عمراً ابن الحضرمي وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير. وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة. فإذا هي في اليوم الأول من رجب - وقد دخلت الأشهر الحرم - التي تعظمها العرب. وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها. فلما قدمت السرية بالبعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ». فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا؛ وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في تعليقه على قصة عبدالله بن جحش وما نزل فيها من الآيات القرآنية: (والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أوليائه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون

(١) أورد هذه القصة ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة»، وقد رواه البيهقي في «سننه الكبرى» (١٢/٩) بسند صحيح عن الزهري عن عروة مرسلاً، وقد وصله هو وابن أبي حاتم وسنده صحيح. انظر: تخريج الألباني لأحاديث «فقه السيرة» للغزالي (ص ٢٣١).

أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولا سيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصرين نوع تقصير، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله، وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيح

فكيف يقاس ببيغض عدو جاء بكل قبيح ولم يأت بشفيح واحد من المحاسن<sup>(١)</sup>.

ويقول سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية: (نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، نعم! ولكن: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان. إنما هم المشركون هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله، ولقد كفروا بالله، وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمة؛ فأذوا المسلمين فيه، وفتنواهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله آمناً، فلم يأخذوا بحرمة ولم يحترموا قدسيته، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهن

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٧٠).

في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام، ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات؛ الذين يتخذون منها ستاراً حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يهتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة! لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل، وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يهتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!... ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، وقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!<sup>(١)</sup>.

وفي ختام هذه الفقرة أوصي إخواني المجاهدين بأن يتقوا الله ﷻ وأن لا يزكوا أنفسهم فهم بشر يخطئون ويصيبون، وأن يبذلوا الوسع في توقي الذنوب وما يسخط الله ﷻ، فإن الذنوب أخطر على المجاهدين

(١) «في ظلال القرآن» (١/٢٠٦).

من عدوهم، وهي سبب الهزائم والخذلان، ويكفيها تذكر ما حصل للمسلمين في غزوة أحد، وإن من أخطر وأكبر الذنوب التي تهدم الجهاد وأهله التنازع والتفرق، المؤديان إلى الفشل والهزيمة وتسلط الأعداء.

كما أوصي إخواني الدعاة أن يعدلوا في نقدهم لإخوانهم المجاهدين، وأن يتجنبوا المنابر العامة في ذكر الأخطاء، كما أوصيهم وهم يذكرون أخطاء المجاهدين أن ينهجوا ذلك المنهج الرباني الآنف الذكر فيصدرون حديثهم ونقدهم لأخطاء المجاهدين بذكر ما هو أكبر من ذلك وأشنع، وذلك بما يقوم به اليوم الكفرة الغزاة وأولياؤهم المنافقون من قتل وتشريد وسجن وتجويع وحصار خانق على المسلمين وصد عن سبيل الله ﷻ وقبل ذلك كفرهم بالله ومحادثهم للإسلام وأهله في بلاد العراق وأفغانستان والشيشان وفلسطين وغيرها من بلدان المسلمين.



## المبحث الثاني

### التصدي للغزو الفكري وبث الشبهات

وهذا النوع من الغزو من أشد أنواع الغزو الموجه للمسلمين، والتصدي له وكشف شبهاته من أفضل أنواع الجهاد وأحبه إلى الله ﷻ، ووسيلة التصدي له تكون بجهاد البيان والحجة: بيان سبيل المؤمنين وبيان سبيل المجرمين، وهذه مهمة العلماء الربانيين والدعاة الصادقين، بل هي من أبرز صفات الصديقين في هذه الأمة، الذين علموا وعملوا وبينوا الحق للناس، وصبروا على ذلك كله، وقد يستهين بعض الناس بهذا الضرب من الجهاد، ويظن أن جهاد الكفار الغزاة باليد والسنان أفضل منه وأولى.

والحق أن الأمر ليس كذلك، فإن جهاد البيان إذا قام به أهله حق القيام فإنه قد يفوق جهاد السنان، ويحتاج إلى صبر عظيم لأن بيان الحق ومقارعة الباطل وكشف زيفه وتلبسه أعظم أنواع الجهاد، وما يتعرض له القائمون به من البلاء والمحن أشد مما يتعرض له المجاهدون في ساحات الوغى، ولأن جهاد السنان يكون في وقت محدد ومعدود، أما جهاد البيان فهو مستمر في حياة العلماء والدعاة طول الحياة. يضاف إلى ذلك أن جهاد اليد والسنان يحسنه كل أحد يجيد حمل السلاح والرمي به، أو أي خدمة تقدم للمجاهدين من حراسة، أو تجهيز طعام، أو مداواة

جرحى، وهذه المهمات لا تحتاج إلى علم وفقه، بل يقوم بها العامي ولو لم يكن من أهل العلم. بينما جهاد البيان وكشف الشبهات ومصاولة الباطل وبيان زيفه، لا يحسنه إلا أهل العلم الربانيين، وقلما تحصل بهم الكفاية، ولا سيما في مثل أزمئتنا اليوم الذي أجلب فيه أهل الكفر والنفاق على ديار المسلمين محاولين مسخ هوية المسلمين وتشويه عقيدتهم وزعزعة أفكارهم وأخلاقهم، مستخدمين في ذلك ما قدروا عليه من وسائل الإعلام المختلفة ووسائل التنصير والاستشراق والتعليم.

وللتدليل على أهمية جهاد الدعوة والبيان وأن ما يواجهه أهله من البلاء والمصائب والمصاعب أكثر وأشد مما يواجهه المجاهدين باليد والسنان. أسوق الرواية الآتية التي يخبر فيها النبي ﷺ أن ما أصابه من الشدائد في مكة وهو يدعو الناس إلى التوحيد، ويبين لهم حقيقة دين الإسلام أكبر وأشد عليه مما أصابه في غزوة أحد والأحزاب، وأصاب أصحابه من الشدة والقرح والابتلاء.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجيني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم»، قال:

«فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»<sup>(١)</sup>.

ويحسن بهذه المناسبة إيراد ما ذكره الإمام ابن تيمية رحمه الله في أهمية وفضل جهاد البيان، وأنه من أعظم أنواع الجهاد، وذلك في كتابه العظيم (منهاج السنة)، وذلك في معرض رده على شبهة الرافضي في أن علياً رضي الله عنه قد سبق الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في الشجاعة والجهاد بالسنان في سبيل الله ﷻ فكان مما قال رحمه الله: (ومما ينبغي أن يعلم أن الشجاعة إنما فضيلتها في الدين لأجل الجهاد في سبيل الله، وإلا فالشجاعة إذا لم يستعن بها صاحبها على الجهاد في سبيل الله، كانت: إما وبلاً عليه إن استعان بها صاحبها على طاعة الشيطان، وإما غير نافعة له إن استعملها فيما لا يقربه إلى الله تعالى).

فشجاعة علي والزبير، وخالد وأبي دجانة، والبراء بن مالك وأبي طلحة، وغيرهم من شجعان الصحابة - إنما صارت من فضائلهم لاستعانتهم بها على الجهاد في سبيل الله؛ فإنهم بذلك استحقوا ما حمد الله به المجاهدين.

وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد، ومنه ما يكون بالحجة والبيان والدعوة.

(١) مسلم (١٧٩٥).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَافْتَعْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]، فأمره الله - سبحانه وتعالى - أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً، وهذه السورة مكية نزلت بمكة، قبل أن يهاجر النبي ﷺ وقبل أن يؤمر بالقتال، ولم يؤذن له، وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال، وأما القتال فيحتاج إلى التدبير والرأي، ويحتاج إلى شجاعة القلب، وإلى القتال باليد. وهو إلى الرأي والشجاعة في القلب في الرأس المطاع أحوج منه إلى قوة البدن، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما مقدمان في أنواع الجهاد غير قتال البدن.

قال أبو محمد بن حزم: وجدناهم يحتجون بأن علياً كان أكثر الصحابة جهاداً وطعناً في الكفار وضرباً، والجهاد أفضل الأعمال. قال: وهذا خطأ؛ لأن الجهاد ينقسم أقساماً ثلاثة:

أحدها: الدعاء إلى الله تعالى باللسان. والثاني: الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير. والثالث: الجهاد باليد في الطعن والضرب. فوجدنا الجهاد باللسان لا يلحق فيه أحد بعد النبي ﷺ أباً بكر ولا عمر. أما أبو بكر: فإن أكابر الصحاب أسلموا على يديه، فهذا أفضل عمل، وليس لعلي من هذا كثير حظ، وأما عمر: فإنه من يوم أسلم عز الإسلام، وعبد الله علانية، وهذا أعظم الجهاد. وقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين اللذين لا نظير لهما، ولا حظ لعلي في هذا.

وبقي القسم الثاني، وهو الرأي والمشورة، فوجدناه خالصاً لأبي بكر ثم لعمر. بقي القسم الثالث، وهو الطعن والضرب والمبارزة، فوجدناه

أقل مراتب الجهاد ببرهان ضروري، وهو أن رسول الله ﷺ لا شك عند كل مسلم في أنه المخصوص بكل فضيلة، فوجدنا جهاده ﷺ إنما كان في أكثر أعماله وأحواله بالقسمين الأولين من الدعاء إلى الله ﷻ والتدبير والإرادة، وكان أقل عمله الطعن والضرب والمبارزة، لا عن جبن، بل كان أشجع أهل الأرض قاطبةً نفساً ويداً، وأتمهم نجدةً، ولكنه كان يؤثر الأفضل فالأفضل من الأعمال، فيقدمه ويشغل به، ووجدناه يوم بدرٍ - وغيره - كان أبو بكرٍ معه لا يفارقه، إيثاراً من النبي ﷺ له بذلك، واستظهاراً برأيه في الحرب، وأنساً بمكانه، ثم كان عمر ربما شورك في ذلك، وقد انفرد بهذا المحل دون علي، ودون سائر الصحابة، إلا في الندرة.

ثم نظرنا مع ذلك في هذا القسم من الجهاد، الذي هو الطعن والضرب والمبارزة، فوجدنا علياً لم ينفر بالسيوف فيه، بل قد شاركه فيه غيره شركة العيان، كطلحة والزبير وسعد، ومن قتل في صدر الإسلام، كحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، ومن الأنصار سعد بن معاذ وسماك بن خرشة - يعني أبا دجانة - وغيرهما، ووجدنا أبا بكر وعمر قد شاركاه في ذلك بحظ حسن، وإن لم يلحقا بحظ هؤلاء، وإنما ذلك لشغلها بالأفضل من ملازمة رسول الله ﷺ ومؤازرته في حين الحرب، وقد بعثهما على البعوث أكثر مما بعث علياً، وقد بعث أبا بكر إلى بني فزارة وغيرهم، وبعث [عمر] إلى بني فلان، وما نعلم لعلي بعثاً إلا إلى بعض حصون خيبر ففتحه. فحصل أرفع أنواع الجهاد لأبي بكر وعمر، وقد شاركا علياً في أقل أنواع الجهاد، مع جماعة غيرهم<sup>(١)</sup> ١٩٦ هـ.

(١) «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٨٦).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

(كان الجهاد في أول الإسلام بتبليغ الحجة، وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: ﴿لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ٥١) فلا تُطع الكافرين وجهدهم به جهاداً كبيراً ﴿[الفرقان: ٥١-٥٢]﴾. فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهو الأعظمون عند الله قدراً. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا -صلوات الله وسلامه عليه- من ذلك أكمل الجهاد وأتمه<sup>(١)</sup>.

وبهذا يتبين لنا أهمية جهاد البيان وفضله، وأن الله ﷻ قد فرضه على علماء الأمة لبيان الحق للناس، ولكشف شبهات الأعداء من الكفار والمنافقين، وبيان باطلهم ودحض حججهم، فما أعظم الأمانة الملقاة على كاهل العلماء والدعاة، وما أعظم أجرهم إن هم قالوا الحق وفضحوا الباطل للناس، وقاموا في ذلك مخلصين لله تعالى، وما أعظم وزرهم إن

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥).

هم كتموا الحق أو لبسوا الحق بالباطل، وما أحوج الأمة اليوم إلى علمائها ليقودوها في وسط هذه الأمواج المتلاطمة، ويوصلوها إلى بر الأمان، ويخرجوها من هذا التيه، ويخلصوها بما آتاهم الله ﷻ من العلم من شبهات المشبهين وانتحال المبطلين. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وإن أمانة القيام بجهد البيان لتعظم في زماننا اليوم الذي بلغ فيه غزو الأعداء لعقيدة المسلمين ذروته، ولا سيما بعد انتشار وسائل الإعلام المتنوعة ووسائل التواصل بالحوال والحاسوب الذي يخترق عقول المسلمين ويدخل إليها بلا استئذان محملة بآلاف المواقع التي تبث الشبهات وتفتك في العقول والأفكار، ومشاركة مع مشائخي العلماء وإخواني من طلبة العلم في جهاد البيان وكشف الشبهات.

أتناول في المباحث القادمة بعض صور الغزو الفكري والعقدي من قبل أعداء المسلمين من الكفار المنافقين والتي سبق ذكرها، وسبل تفنيدها وبيان باطلها، وبيان الحق الدامغ لها، ولكن يحسن بنا التقديم لذلك بمقدمتين مهمتين:

- الأولى: عن الشبهات تعريفها، وبيان خطرها، والتحذير من الوقوع فيها.
- الثانية: عن التأويل وخطره وتأثيره وكونه سبباً في التعلق بالشبهات وما ينجم عن ذلك من فساد.

المقدمة الأولى: الشبهات تعريفها، وبيان خطرهما والتحذير من الوقوع فيها:

تعريف الشبهة: قال في «اللسان»: الشبهة: (الالتباس، والمشتبهات من الأمور: المشكلات، وشبهه عليه: خلط عليه الأمر حتى اختلط بغيره)<sup>(١)</sup>. وعرفها الجرجاني في «التعريفات» بأنه: (هو ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً)<sup>(٢)</sup>. ولعل هذا التعريف أخذ من قوله ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمورٌ مشتبهة»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها)<sup>(٤)</sup>.

وقال أيضاً: «الشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له»<sup>(٥)</sup>.

التحذير منها: وقد حذرنا الله ﷻ، وحذرنا رسوله ﷺ والسلف من بعده من سماع الشبهات وتبعتها أو الجلوس مع الخائضين فيها. وهذا من باب اتخاذ الوسائل الواقية من الوقوع في الشبهات، قال الله ﷻ في وصف أهل الزيغ المتبعين للشبهات، ووصف أهل العلم والإيمان الراضين لها:

(١) «لسان العرب» (١٣/٥٠٣).

(٢) «التعريفات» (باب الشين) (١/١٦٥).

(٣) البخاري (٥٢) (١٩٤٦)، مسلم (١٥٩٩).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/١٤٠)، ط دار الكتب العلمية.

(٥) المصدر نفسه (١/١٠٤).

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ۚ آمَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٧-٨].

وحذرنا - سبحانه - من مجالس أهل الزيغ الخائضين في آيات الله ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وهذا النهي يشمل القعود معهم مباشرة ومشافهة، أو القراءة في كتبهم، أو سماع مناظراتهم في أجهزة الإعلام، أو الدخول على مواقعهم، فالعلة في النهي واحدة في الجميع.

كما حذرنا الرسول ﷺ من اتباع المتشابهات والمناظرة فيها، وذلك في الأثر الذي رواه اللالكائي في «أصول أهل السنة» بسنده عن عمرو ابن شعيب عن أبيه، عن جده: أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ قال: فسمعهم رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فقي في وجهه حب الرمان، فقال: «بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا فَأَنْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فاعملوا به أو انظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه»<sup>(١)</sup>.

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٢٩) وسنده حسن.

فهذا نبي الله ﷺ غضب غضباً شديداً عندما رأى بعض الصحابة يتجادلون في القرآن، وأمرهم بالكف وذلك لرحمته ﷺ بهم وبأمتهم، وخوفه عليهم، مما قد يكون سبباً في زيغهم وضلالهم.

وأما ما جاء عن السلف رضي الله عنهم من التنفير من أهل البدع والنهي عن مجالستهم والسماع منهم، فالروايات في ذلك كثيرة ومن أشهرها:

\* موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من صبيغ بن عسل فقد روى اللالكائي بسنده قال: أخبرنا أحمد بن علي بن العلاء قال: ثنا أبو الأشعث قال: حدثنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن رجلاً من بني تميم يقال له: صبيغ بن عسل قدم المدينة وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث إليه وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال عمر: وأنا عبد الله عمر، وأوماً عليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجّه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، قال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي<sup>(١)</sup>.

فهذا فعل عمر رضي الله عنه مع الخائضين في الباطل المتبعين للشبهات حيث لم يمكنهم من قول الباطل بحجة النقاش الحر وحرية الرأي والتفكير. وقد ضربه عمر رضي الله عنه؛ لأنه سأله عن المتشابه ابتغاء الفتنة، وليس سؤال استرشاد.

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول السنة» (٧٠٣/٤) والدارمي في «سننه» (١٤٦).

\* وكان الحسن رحمه الله يقول: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم<sup>(١)</sup>.

\* وكان ابن طاوس جالساً فجاء رجل من المعتزلة قال: فجعل يتكلم فأدخل ابن طاوس أصبعيه في أذنيه. قال: وقال لابنه: أي بني! أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد، لا تسمع من كلامه شيئاً. قال معمر: يعني أن القلب ضعيف<sup>(٢)</sup>.

ومثل هذه المواقف كثيرة، فكيف ممن جعل سمعه وبصره وقفاً على سماع المناظرات الفكرية المنحرفة في وسائل الإعلام المختلفة، وكيف بمن جل وقته تتبع مواقع أهل الشبهات والزيغ وطروحاتهم ومناظراتهم في القنوات، ومواقع الإنترنت؟!

ومن خطورة الشبهات أن أصحابها يعرضونها في ثوب مزخرف يصبغونه بصبغة شرعية قد تنطلي على الجهلة من المسلمين، وفي حقيقته خداع وتتبع للمتشابه من الأدلة وإعراضهم عن المحكم منها، وهذا شأن أهل الأهواء والبدع، وهو من أبرز سماتهم في الاستدلال، حيث يقفون عند المتشابه ولا يردونه إلى المحكم ليتبين وجه الحق من الباطل فيه، وصدق الله العظيم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ الآية [آل عمران: ٧]. وما أحسن ما سطرته يد ابن القيم رحمه الله وهو يحذر من الشبهات وأهلها، وما يقومون به من خداع وتلبيس في نشرها، يقول رحمه الله:

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(والقلب يتوارده جيشان من الباطل: جيش شهوات الغي وجيش شبهات الباطل فأيا قلب صغا إليها، وركن إليها تشر بها وامتلاً بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أُشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه، وقال لي شيخ الإسلام رحمه الله وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات، أو كما قال)، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك. وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها، وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها، ومثال هذا الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته، وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله، وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفظ آخر، وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله وكم رد من

الحق بتشييعه بلباس من اللفظ قبيح وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنته، فهو لاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيهاً وتجسيماً ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة، إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتههم ومقاتلهم أحسن ما يقدر على من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدر على من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة، فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن تشأ قلت ذاقيء الزناير  
مدحاً وذمّاً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى: هل هو حق أو باطل؟ فجرده من لباس العبارة، وجرد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه، ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه، ومن يسيء ظنه به كنظر الشر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق، وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كيلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبخوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك المحسوسات، ولا يتمكن من المكابرة فيها، فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة، والله المستعان على معرفة الحق وقبوله، ورد الباطل وعدم الاغترار به<sup>(١)</sup>.

ويتحدث رحمه الله عن خطر الخوض بالشبهات الباطلة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

فيقول: (فذكر تعالى الأصلين وهما داء الأولين والآخرين. أحدهما: الاستمتاع بالخلق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن، فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها، فإنه لا يستمتع بنصيبه كله، ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا، بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١)، دار الكتب العلمية.

ساعية في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوض الباطل الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل، ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يتلى هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلاً، ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعوا إلى النار...

... والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا، وهذا فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه، ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها، وحقيقته أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه: حياءً وخوفاً وطمعاً ورجاءً، ففنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقاً وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فأسلم لربه انقياداً وخضوعاً وذلاً وعبودية، وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهراً وباطناً من مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده،

وسالم أوليائه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها، وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين الى خلافهما<sup>(١)</sup>.

ويعلق الشيخ عبدالرحمن المحمود - حفظه الله تعالى - على وصية شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم التي جاء فيها: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة» فيقول:

(والشبهات من أشد الأشياء على القلوب وأثقلها، حتى تكاد الشبهة أن تكون جبلاً، وأنى للقلب الرقيق تحمله.

والمؤمن المستبصر يدرك مدى خطورة الأمر، خاصة إذا علم أنه لا أحد بمؤمن من ذلك، مهما علا شأنه في العلم أو العبادة والطاعة، أو في المجاهدة والدعوة، أو فيها جميعاً.

والمتتبع لواقع المسلمين المعاصر، وخاصة طلاب العلم ورجال الدعوة وشباب الصحوة منهم، يرى كيف تسللت شبه كثيرة إلى بعض القلوب.

واللافت للنظر أن كافة هذه الشبهات ليست جديدة، بل هي مما سبق أن عُرِضَ ودُوِّنَ في كتبهم، وردّها العلماء والدعاة وكشفوا زيفها؛ فما الجديد؟ الذي استجد إنما هي حرب مركّزة على الإسلام وعلى منهاج

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٢) دار الكتب العلمية.

السلف خاصة، ودعمت هذه الحرب قوىً مختلفة معروفة، وقابل ذلك ضَعْف الإيمان وخلل في الثقة بالمنهج، وهو ما جعل هذه الشبهات تلج القلوب، فتَغَيَّرَ الكثير منها، فصارت هذه القلوب كالإسفنجة تمتص هذه الشبهات، كما تمتص الماء العفن، فجاءت هذه الوصية الغالية من شيخ الإسلام التي تقول خلاصتها: لا تجعل قلبك للشبهات مثل الإسفنجة، فيتشربها ولا ينضح إلا بها.

فما وجه تشبيه هذا النوع من القلوب بالإسفنجة؟

١ - يُلاحظ الشبه بينهما من ناحية التكوين؛ فكلُّ منهما رقيق لَيِّن، ليس في داخله صلابة من عظام ونحوها.

٢ - أن الإسفنجة معروفة بطبعها؛ فهي تمتص كل سائل؛ فإن أدخلتها طيباً: من ماء عذب أو لبن أو شراب، فإنها تمتصه، كما أنك إن أدخلتها في ماء عفن، أو بول أو نجس: كخمر ونحوه، فإنها تمتصه أيضاً.

٣ - أن الإسفنجة إذا امتصت السائل، فلا بد أن تنضح بما فيها؛ حيث يخرج منها القطرات، بل أكثر من ذلك إذا ضُغَطَ عليها ولو بقليل من القوة.

وقلماً تحتفظ بما فيها حتى ينشف، ولو نشفت فما أقبح ما فيها؛ إن كان ما امتصته من المجاري وأشباهاها!

٤ - أن الإسفنجة متى ما اعتادت امتصاص العفن، تحولت هي إلى عفن؛ فلا ينفع معها تنظيف ولا غسل.

وكذلك القلوب فهي:

أولاً: رقيقة لأنها موطن الإرادة والحب والبغض والمحبة والكره، وهي موطن أعمال القلوب من خوف ورجاء وإنابة وإخلاص، وصدق، وتوبة، وتوحيد، وتوكل وغيرها؛ ولذا فهي تابعة لمن خضعت له:

فإن انقادت لمولاها وسيدها ومالكها بتوحيده والتوكل عليه، وحده لا شريك له وبمحبتته ورجائه، وخوفه وسائر أعمال القلوب، فقد اتصفت بصفتين عظيمتين:

إحدهما: كمال الافتقار لمولاها؛ فهي لا تستغني عنه لحظة من ليل أو نهار، مع كمال الانقياد والطاعة، فهي تقود أبدانها إلى مولاها بالاستجابة التامة بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ فإن أذنب العبد، فهي لرقبتها تُبادر إلى التوبة والاستغفار والحسنات الماحيات.

والأخرى: كمال القوة في الحق، والنفور من الباطل، (شبهات وشهوات). وسبب ذلك أن قوتها بالله (عبادة واستعانة وتوكلاً)، وهذا من عجيب أحوال قلوب المؤمنين الصادقين؛ حيث تجدها أعظم ما تكون رقة ورحمة، وأقوى ما تكون صلابة في الحق ونفوراً من الباطل، وشجاعة في الدفاع عن الدين الحق وأهله، والموالاة لهم، وردّ الباطل وأهله والبراءة منهم ومن أعمالهم؛ فهي في الإيمان لا تخاف لومة لائم.

وإن انقادت القلوب - عياداً بالله - إلى غير الله: من نفس أمّارة أو هوى أو شيطان، وتمثل ذلك في معبود غير الله، أو تعلّق بجاه أو دنيا أو

شهوة قُدمت على عبادة الله وطاعته، تحولت القلوب إلى محبة وخضوع لذلك المعبود من دون الله، فصارت على الضد من صفات المؤمنين، فهي: قاسية في عبادة الله وطاعته والانقياد له، حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة.

وهي ذليلة رقيقة خاضعة لمن مالت إليه، فيها من الضعة والاستكانة والحقارة والعبودية لذلك المعبود من دون الله، ما لا يكاد يصدقه العاقل السوي.

ثانياً: هي (أي: القلوب) بحسب ما تحمل وتربى عليه؛ فإن حُملت على حب الحق والاستجابة له والنفور من الباطل والنكارة له، حُفظت بعون من الله وتوفيقه من فتن الشهوات والشبهات.

أما إن تُركت مرتعاً لكل عارض مما يعرض لها، تتقبله من غير تمييز، فإنها تكون عرضة للخطرات والوساوس التي يلقيها شياطين الإنس والجن؛ فتصبح مرتعاً للشبهات فتصير كالسفنجة التي حذر منها شيخ الإسلام؛ تمتص الشبهات وبها تنضح، وتصبح مريضة بذلك.

ولتشخيص هذه الحالة في واقعنا المعاصر نلاحظ ما يلي:

١- بروز هذه الظاهرة الإسفنجية لدى بعض طلاب العلم والشباب المستقيم ونحوهم ممن لهم اهتمامات بالعلم الشرعي، أو بالقراءة بمعناها العام الشامل لما يُشاهد أو يُسمع أو يُقرأ، أو بحب سماع الحوارات التي تدور بين الأطياف المختلفة في عقائدها، أو في مشاربها أو في مناهجها؛ فتجد بعض هؤلاء -هدانا الله وإياهم وثبتنا على الحق جميعاً- يتشرب شبهات أهل الباطل، فتستقر في نفسه.

وإذا علمنا أن للشبهات طريقاً ولمعناً محرقاً، خاصة إن عُرِضت بأسلوب ماكر تصحبه سخرية وهزء بأهل الحق المتمسكين به؛ عندها يتبين مدى أثر هذه الشبهات على القلوب الإسفنجية الضعيفة؛ حيث تتحول القلوب إلى نوع من القلق، وشيء من الحيرة والشك؛ حيث يتصارع في قلبه ثقته بمنهجه وعقيدته الصافية، وقوة الشبهة وشدة جذبها وقوة حرقها.

وفي هذه الحالة المرضية العارضة المقلقة يكون للقلب أحد مسارين:  
أ- مسار يؤوب فيه القلب إلى سكينه الإيمان وبرد اليقين، والتسليم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ؛ بحيث تكون له خبيئة من عبادة وطاعة يتقرب بها إلى الله، تعالى؛ فتجدد له هذه العبادة ثوب الإيمان والتعلق بمقلب القلوب - تبارك وتعالى - فيتوجه إليه منياً مخبتاً متوكلاً، أو يكون له صاحب أو أصحاب، مثل شيخ يثق به ويباحثه أو يسأله عما عرض له من شبهات، فيتلقى الجواب وهو على حالته السابقة من التسليم والعبادة؛ فهذا غالباً ما يعود إليه اليقين ويسلم من غوائل ما عرض لقلبه من الشبهات؛ فينتبه لنفسه لاحقاً.

ب- مسار لا يوفق فيه لتسليم ولا لمزيد طاعة، ولا لمعالجة صحيحة لهذا العارض؛ فهذا قد تشتد عنده حالة الشك والقلق، ويبقى حبس نفسه وهواه وهواجسه ووساوسه، فينتج عن ذلك مرضان:

- رسوخ الشبهة أو الشبهات: لأن القلب تَشَرَّبَهَا واختلطت به، كالإسفنجة التي امتصت الماء العفن.

- نُقِلَ الشبهة إلى غيره: حيث تجده ينشرها بين أصحابه، ويعرضها في كل مناسبة، ويكرر عرضها؛ وكأنه لم يبقَ معه من القول والهم في دينه ودينه إلا ما أَشْرَبَ قلبه من ذلك؛ فهو لا يكتفي بمرض قلبه، وإنما ينقل عدواه إلى الآخرين السالمين الأصحاء.

والطامة الكبرى تكون حين يخص بهذه البوائق أحبابه وأصحابه المقربين منه أو طلابه المتأثرين به؛ فما أعظمها من مصيبة وقعت على الطرفين!

وهذا معنى تشبيه القلب بالإسفنجة؛ لأنها إذا امتصت العفن صارت تنضح وتقطر بما فيها من ذلك، كما هو مشاهد، وكذا القلب الشبيه بذلك. إذن ما المخرج من هذه الحالة الإسفنجية؟ إن العلاج والوقاية من ذلك تكون بأمور منها:

• أولاً: العبادة والطاعة والتضرع بين يدي الله ﷻ وسؤاله الثبات والهداية إلى الحق

وهذا أمر قد لا ينتبه له المشغولون بالقراءة والثقافة والفكر وسعة الاطلاع؛ حيث يظنون أن سعة العلم كافية وأن كثرة القراءة وحدها محصنة للإنسان في حياته من الزيغ والانحراف، حتى إنهم يستعوضون بها عن الدعاء والعبادة وأفعال القرب؛ فقد يؤخر أحدهم الصلاة أو

يتأخر عن صلاة الجماعة أو بعضها؛ لانشغاله بالقراءة، وقد يرى التسبيح والأذكار مشغلة عما هو أهم (وهو القراءة).

وقد لا يجد في صلة رحمه من الأقربين جداً واجتهاداً، كالذي يقدمه في ساعات يقضيها على الشبكة المعلوماتية، (وأنا أتكلم عن الجاد منها وليس عن سخافاتهما)، وقد لا يحرص على النوافل؛ لأنها تأخذ منه وقتاً، بل قد لا يجد ما يفرغ به نفسه لقراءة القرآن الكريم أو حفظه أو تدبر معانيه عشر معشار ما يقضيه في القراءة المبعثرة الهائمة.

إن هذه حالة يجب أن يبادر أصحابها إلى علاج قلوبهم تجاهها؛ وذلك بحمل النفس على تحمّل العبادة بأنواعها مع تهيئة البال والنفس والقلب؛ لكي يطيب بالعبادة ويأنس بها؛ فيكون ممن يرتاح بالعبادة وليس ممن يرتاح منها.

والنصيحة بالعبادة عند ورود الفتن؛ حيث تضطرب القلوب، وتصاب البصيرة بالغش، خير دليل على أهمية العبادة والطاعة والقربى إلى الله - تعالى - وعلى كونها تنير البصائر عند ورود الشبهات.

• ثانياً: الابتعاد عما يقسي القلب ويضعفه، خاصة ما عظمت الفتنة فيه في السنوات الأخيرة، مثل:

١ - مجالس المنكر ومتندياته التي تقوم - في غالبها - على نشر الإلحاد والزندقة ونشر البدعة والاستهزاء بالله ورسوله ﷺ وشريعته ودينه وعباده المؤمنين.

وهي تقوم على فكر منحرف وثقافة مستوردة، وتسعى إلى التشكيك ونشر الشُّبه بين أهل الإسلام.

وكفى بذلك مرضاً للقلوب؛ فهذه فيها السم الزعاف، ولا يجوز لأحد دخولها إلا المتمكن يريد إنكار المنكر، ومع هذا؛ فهو حكيم يمر بها لغاية يريد تحقيقها، يخدم بها دينه ويردُّ صَوْلَان هذه المنكرات.

ثم هو يمر مسرعاً لا يقيم معها ولا يطيل بحجة معرفة المنكر، بل في قلبه من حرارة الولاء والبراء ما يصرفه عنها إلى برد الإيمان والعلم والطاعة.

٢- مجالس ومواقع قاذورات الإعلام، وفتنها وخاصة فتنة الصور وما يتبعها من مجون يُقرأ أو يُسمع أو يُشاهد.

وهذا يقسي القلب، ويُضعف العبادة؛ فيمرض صاحبه، ويكون عرضة للشبهات التي قد يقوده إليها من تساهل فيه من الولوغ في الشهوات.

• ثالثاً: أن تجعل قلبك كالزجاجة الصافية المصمتة كما أوصى شيخ الإسلام؛ فيكون لقلبك بصر نافذ عند ورود الشبهات، فيعرف أنها شبهة وليست علماً، فيتعامل معها على هذا الوضع<sup>(١)</sup> .

• رابعاً: ومما يحمي من الوقوع في الشبهات والانخداع بها قوة اليقين والإيمان بالله ﷻ وأسمائه الحسنی وقوة اليقين باليوم الآخر، قال الله ﷻ:

(١) مجلة البيان عدد (٢٧٠).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾<sup>(١١٣)</sup> وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿[الأنعام: ١١٢-١١٣].

يقول العلامة محمد أمين الشنقيطي رحمه الله: (في هذه الآية ترتيب غريب عجيب بالغ في الحسن؛ لأن السبب الأول - أي في قبول الباطل - هو الغرور والخديعة، فتسبب عن الغرور والخديعة أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلوب وميلها أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه أن اقترفوه.. والمؤمنون يعرفون زخارف الشيطان ورجسه فيتباعدون منه ويحذرونه)<sup>(١)</sup>.

ومفهوم الآية أن اليقين باليوم الآخر يحقق مجانبة الإصغاء إلى هذا الخداع والفرار منه، فالمؤمنون بالله واليوم الآخر قد استنارت بصائرهم فنظروا في حقائق الأمور فلم يهولهم زخرف الباطل وغروره)<sup>(٢)</sup>.

وأختم هذا المبحث بالتنبيه على أمور ينبغي مراعاتها في مدافعة الشبهات، وذلك فيما يلي:

١ - إذا كانت الشبهة واضحة البطلان ظاهرة العوار لا يلتفت إليها، فإن الخوض في إبطالها تضييع للزمان وإشهار لها. إنما المدافعة للشبهات

(١) العذب النمير تحقيق خالد السبت (٢/ ٥٨١).

(٢) انظر: (مدافعة الشبهات) د. عبدالعزيز آل عبد اللطيف، مجلة البيان العدد (٢٦٩).

التي يضل بها بعض الناس<sup>(١)</sup>، إذ لا يشتبه على الناس الباطل المحض، بل لابد أن يشاب بشيء من الحق<sup>(٢)</sup>.

٢- ينبغي في مدافعة الشبهات أن لا تذكر الشبهة ابتداءً واستقلالاً بل الأولى أن يبدأ بتقرير الحق، وتبين الهدى بأدلتها وبراهينه العقلية والعقلية، ثم يتلوه الجواب عن الشبهات الواردة عقب هذا التقرير والتأصيل<sup>(٣)</sup>.

٣- ينبغي أن يكون مدافعة الشبهات للضرورة، وأن لا يتصدى لها إلا أولو العلم الراسخين العالمين بسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، لأن مدافعة أهل الشبهات والأهواء معركة سلاحها العلم والبصيرة في الدين. يقول العلامة ابن الوزير رحمه الله: (المحامي عن السنة الذاب عن حماها: كالمجاهد في سبيل الله تعالى. يعد للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]<sup>(٤)</sup>.

٤- التوسط مع الشبهات أثناء سماعها من الآخرين أو ورودها من المخاطبين، فلا يزجر كل سائل تعرض له شبهة، ولا يهمل كل من وقع في حيرة أو اشتباه؛ فهذا الإعراض والإهمال قد يفضي ببعضهم إلى الزندقة أو الخروج عن السنة. أما من تقصد الشبهات أو دعوة

(١) انظر: «التدمرية» (ص ١٠٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٧/٨).

(٣) انظر: (مدافعة الشبهات) د. عبدالعزيز آل عبداللطيف (المصدر السابق).

(٤) «إيثار الحق على الخلق» (ص ٢٠).

الناشئة إلى إثارتها، كما يفعله بعض أهل الزيغ في القديم وفي واقعنا المعاصر، فهذا قد ينفع في حقه الزجر أو الإهمال، والأولى في حق مثل هؤلاء أن يردون إلى الأصول الكبار فقد يكون الاختلاف فيها. وشبهته التي يثيرها إن هي إلا نتيجة لفساد الأصول الكبيرة التي تتعلق بأصول الإيمان والتوحيد.

٥- سبب الوقوع في الشبهات: إما جهل بالشرعية أو هوى وشهوة ومرض في القلب، يغطيها صاحبها بشبهة دليل فيلبس الحق بالباطل، وعلى القائم بدفع الشبهات أن يسبر أحوال المثيرين للشبهات أو الواقعين فيها، فإن كان السبب جهلاً بمحكمات هذا الدين، فيكون الدفع بتعليم الجاهل وإزالة شبهته القائمة على الجهل بالأدلة المحكمة. أما إذا كان السبب شهوة يغطيها بشبهة، فينبغي أن يذكر أمثال هؤلاء بالإخلاص والصدق مع الله ﷻ وتقواه في السر والعلن، وتذكيره بأن شجرة الإيمان لا تقوم إلا على ساق التسليم لخبر الله ﷻ وأمره القدري والشرعي وتذكيره بالآخرة والحساب والجزاء؛ مع السعي لبيان تهافت شبهته بالدليل.

٦- على المتصدي لبيان الحق ودفع الشبهات عنه أن مجرد نيته لله ﷻ وأن يستعين بالله تعالى في قومته، وأن يكثر من الدعاء وسؤال الله ﷻ التثبيت والسداد والهداية للحق له وللمدعو.

## • المقدمة الثانية: التأويل خطره، وأثره في فساد الاعتقاد والأعمال ونشر الشبهات

ومن باب التأويلات الفاسدة يدخل أهل الشبهات والزيف والانحراف ليفسدوا على المسلمين عقيدتهم وأخلاقهم. بل إن باب الشبهات الذي سبق الحديث عنه في المقدمة السابقة لا يدخل منه إلا بمفاتيح التأويل الفاسد والتحريف ولي أعناق الأدلة والنصوص. وأصل التأويل الفاسد مبني عند أهله على تقديس العقل وتقديمه على النقل، بحيث ما ظهر في عقولهم من النصوص متعارضاً مع أفهامهم، فإن كان حديثاً نبوياً ردوه، ولو كان صحيحاً بحجة أنه حديث آحاد، وإن كان من القرآن أولوه إلى ما يوافق عقولهم وأهواءهم، وزعموا أن الظاهر غير مراد.

ولبيان خطر التأويل وما أحدث في هذه الأمة من الفساد في الدين والدنيا على مدار التاريخ الإسلامي، أنقل ما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذه الجنايات والمفاسد التي نجمت بسبب فتح باب التأويل. يقول رحمه الله:

(إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق والاختلاف، وما دفع إليه أهل الإسلام وجده ناشئاً من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن وأخبار الرسول التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه، فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين والتحارب وتفرق الكلمة وتشتت الأهواء وتصدع الشمل وانقطاع الحبل وفساد ذات البين، حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضاً، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين، وتستحل منهم أنفسهم وحرمهم وأموالهم، ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم...

ومن أعظم آفات التأويل وجنایاته أنه إذا سلط على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان خمسة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر<sup>(١)</sup>، وأصول الإسلام خمسة وهي كلمة الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فعمد أرباب التأويل إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها بالتأويل، وذلك أن معقد هذه الأصول العشرة تصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر، فعمدوا إلى أجل الأخبار وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله، فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له...

ومن جنایات التأويل ما وقع في الإسلام من الحوادث بعد موت رسول الله وإلى يومنا هذا، بل في حياته - صلوات الله وسلامه عليه - فإن خالد بن الوليد قتل بني جذيمة بالتأويل، ولهذا برأ رسول الله من صنعه، وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»<sup>(٢)</sup>، ومنع الزكاة من منعها من العرب بعد موت رسول الله بالتأويل، وقالوا: إنما قال الله لرسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا لا يكون لغيره، فجرى بسبب هذا التأويل الباطل على الإسلام وأهله ما جرى ثم جرت الفتنة التي جرت قتل عثمان، بالتأويل، ولم يزل التأويل يأخذ مأخذه حتى قتل به عثمان فأخذ بالزيادة والتولد حتى قتل به بين علي ومعاوية بصفين سبعون ألفاً أو أكثر من المسلمين،

(١) الوارد في حديث جبريل: أن أركان الإيمان ستة.. وسادسها: الإيمان بالقدر خيره وشره.

(٢) البخاري (٤٠٨٤)، باب بعث النبي ﷺ خالد.

وقتل أهل الحرة بالتأويل وقتل يوم الجمل بالتأويل من قتل، ثم كان قتل ابن الزبير ونصب المنجنيق على البيت بالتأويل، ثم كانت فتنة ابن الأشعث وقتل من قتل من المسلمين بدير الجماجم بالتأويل، ثم كانت فتنة الخوارج وما لقي المسلمون من حروبهم وأذاهم بالتأويل، ثم خروج أبي مسلم وقتله بني أمية.

وتلك الحروب العظام بالتأويل، ثم خروج العلويين وقتلهم وحبسهم ونفيهم بالتأويل إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا من حوادث الإسلام التي جرّها التأويل... وما ضرب مالك بالسياط وطيف به إلا بالتأويل، ولا ضرب الإمام أحمد بالسياط وطلب قتله إلا بالتأويل، ولا قتل أحمد بن نصر الخزاعي إلا بالتأويل، ولا جرى على نعيم بن حماد الخزاعي ما جرى وتوجع أهل الإسلام لمصابه إلا بالتأويل، ولا جرى على محمد بن إسماعيل البخاري ما جرى ونفى وأخرج من بلده إلا بالتأويل، ولا قتل من قتل من خلفاء الإسلام وملوكه إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام عبدالله أبي إسماعيل الأنصاري ما جرى وطلب قتله بضعة وعشرين مرة إلا بالتأويل، ولا جرى على أئمة السنة والحديث ما جرى حين حبسوا وشدوا وأخرجوا من ديارهم إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام ابن تيمية ما جرى من خصومه بالسجن وطلب قتله أكثر من عشرين مرة إلا بالتأويل.

فقاتل الله التأويل الباطل وأخذ حق دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم، فماذا هدموا من معاقل الإسلام، وهدوا من أركانه، وقلعوا من

قواعده، ولقد تركوه أرق من الثوب الخلق البالي الذي تطاولت عليه السنون، وتوالت عليه الأهوية والرياح، ولو بسطنا هذا الفصل وحده ما جناه التأويل على الأديان والشرائع وخراب العالم، لقام منه عدة أسفار، وإنما نبهنا تنبيهاً يعلم به العاقل ما وراءه، وبالله التوفيق<sup>(١)</sup> هـ.

وقد يقول قائل: وهل التأويل مذموم بإطلاق؟ وهل جميع صوره مردودة وفاسدة؟ والجواب على هذا أن أغلب وأكثر صور التأويل فاسدة ومردودة، لأنها في حقيقتها تحريف للكلم عن مواضعه بلا دليل من كتاب وسنة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (هذا التأويل في كثير من المواضع -أو أكثرها وعامتها- من باب تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات القرامطة والباطنية، وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ورموا في أثرهم بالشهب، وقد صنف الإمام أحمد كتاباً في الرد على هؤلاء وسماه: «الرد على الجهمية والزنادقة»<sup>(٢)</sup>).

أما التأويل المراد به في الكتاب والسنة فهو مشتق من معناه اللغوي الذي هو من قولك: آل الشيء يؤول ومآلاً: رجع<sup>(٣)</sup>. ولذلك جاءت استعمالات (التأويل) في الكتاب والسنة على عدة معانٍ:

**الأول:** بمعنى التفسير، وقد استخدمه القدماء من علماء التفسير كابن جرير الطبري رحمه الله فإنه كثيراً ما يقول: وتأويل هذه الآية كذا أي

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٦٥، ٣٧٦ وما بعدها) (باختصار).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٦٩).

(٣) «لسان العرب» (١/ ١٣٠).

تفسيرها. ذلك أن المفسر يراجع نفسه عند الشرح، ويبين معنى الآية وما تؤول إليه من المقاصد والمعاني، ومن ذلك دعاؤه ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما وقوله: «اللَّهُمَّ فَفَهِّهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»<sup>(١)</sup>.

الثاني: ما يؤول إليه الأمر وما ورد في الكلام، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...﴾ الآية [الأعراف: ٥٣]. أي هل ينظرون إلا تحقيق ما أخبر الله ﷻ عنه من وقوع العذاب بهم يوم القيامة. عندئذ يقر الذين كذبوا به في الدنيا، ويقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

الثالث: تحقيق ما أمر الله ﷻ به، ومن ذلك ما صح في السنة عن عائشة رضى الله عنها أن قالت: (كان ﷺ يقول في ركوعه: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن»)<sup>(٢)</sup> أي يحقق ما أمره الله به في كتابه وذلك بعد نزول سورة النصر، وفيها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

هذه هي المعاني الشرعية للتأويل، وليس كما يفهمه أهل التحريف، ولكن قد يقال: إن بعض معاجم اللغة العربية وبعض كتب الأصول تذكر أن معنى التأويل: هو صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به.

أشار إلى ذلك ابن منظور وابن الأثير وغيرهما، فكيف تزعمون أن العرب لا تفقه من كلامها هذا المعنى.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٧) وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) البخاري تفسير سورة النصر (٤٦٨٤)، مسلم (٤٨٤).

والجواب: أن هذا المعنى دخل إلى معاجم اللغة العربية المتأخرة، نقلاً عن استعمالات الفقهاء والأصوليين، لا نقلاً عن كلام العرب الذي يحتاج به، يدل على صحة هذا القول: إن معاجم اللغة العربية المتقدمة أمثال: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«مقاييس اللغة» لابن فارس، وهما مما دون في القرن الرابع الهجري لم يشيرا إلى هذا المعنى، الذي ذكره الفقهاء والأصوليون، مما يدل على أنه معنى اصطلاحى خاص بهم، فلا يجوز حمل ألفاظ القرآن عليه.

وعلى فرض أن هذا التأويل في لغة العرب هو هذا المعنى الذي أورده الأصوليون، فإن المؤولين للنصوص لم يلتزموا بالشروط التي وضعها الأصوليون لجواز التأويل، ومن أهمها أن يكون معه دليل صحيح وصریح يوجب صرف اللفظ عن ظاهره، وأن يسلم هذا الدليل عن المعارض، فإذا قام دليل من القرآن والسنة الصحيحة على أن الحقيقة مراده امتنع تركها<sup>(١)</sup>.

ولذلك فإن صنيعهم هذا لا ينفي عنهم التحريف لعدم توفر الشروط. ومن أخطر ما يوقع بعض المتأولة في تأويلاتهم الفاسدة اعتمادهم على ما يسمى بتحقيق المصالح ودفع المفاسد، فيعارضون بهذه القواعد نصوص الكتاب والسنة، وينزلونها بتأويلهم الفاسد على وقائع وحوادث بأهوائهم، دون اعتبار لقواعد الترجيح ودون النظر في فقه الموازنات، وهذا يكثر في المظالم والعدوان على الناس في دماءهم وأموالهم،

(١) انظر: «التأويل خطورته وآثاره» د. عمر الأشقر في موقع «شبكة الدفاع عن السنة».

كما هو الحال عند أرباب السياسة الذين يقدمون السياسة على الشرع عند التعارض، وذلك كما قدم أهل الكلام عقولهم وأهواءهم على نصوص الكتاب والسنة.

### أسباب الوقوع في التأويل الفاسد:

إذا تبين فساد التأويل وجنائته على الدين والنفوس والأموال والعقول والأعراض، فلماذا وقع فيه من وقع من بعض أهل العلم أو بعض الولاة، وما الذي سهل على النفوس قبوله مع مخالفته للبيان والعقل والفطرة والنقل؟

يذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أسباباً لقبوله قد وضعها أرباب التأويل الفاسد ومهدوا له بذلك، فمن هذه الأسباب التي ذكرها رحمه الله:

**السبب الأول:** أن يأتي به صاحبه مموهاً مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسواً حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمد عليه كل من أراد ترويج باطل، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به

الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به، لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيلوا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك.

**السبب الثاني:** أن يخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة، تنفر عنها القلوب، وتنبو عنها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولاً إلى القلوب وأشدّها نفرة عنها، فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ فيسمى التدين ثقالة، وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والباطلين سوء خلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله والحمية لدينه فتنة وشرّاً وفضولاً، فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل، فيسمون إثبات صفات الكمال لله تجسيماً وتشبيهاً وتمثيلاً، ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيباً، ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزاً وتجسيماً، ويسمون العرش حيزاً وجهة، ويسمون الصفات أعراضاً، والأفعال حوادث، والوجه واليدين أبعاضاً، والحكم والغايات التي يفعل لأجلها أغراضاً. فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة

الشيعة، تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه، فقالوا للأغمار والأغفال: اعلموا أن ربكم منزّه عن الأعراض والأغراض والأبغاض والجهات والتركيب والتجسيم والتشبيه، فلم يشك أحد الله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الرب تعالى عن ذلك... فلما صرحوا لهم بنفي ذلك: بقي السامع متحيراً أعظم حيرة بين نفي هذه الحقائق التي أثبتتها الله لنفسه وأثبتها له جميع رسله وسلف الأمة بعدهم، وبين إثباتها وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقاه عنهم، فمن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم من فر إلى التعطيل، ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله، وكشف زيف هذه الألفاظ وبين زخرفها وزغلها، وأنها ألفاظ مموهة بمنزلة طعام طيب الرائحة في إناء حسن اللون والشكل ولكن الطعام مسموم، فقالوا ما قاله إمام أهل السنة باتفاق أهل السنة أحمد بن حنبل: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين. ولما أراد المتأولون المعطلون تمام هذا الغرض، اخترعوا لأهل السنة الألقاب القبيحة، فسموهم حشوية ونوابت ونواصب ومجبرة ومجسمة ومشبهة ونحو ذلك، فتولد من تسميتهم لصفات الرب تعالى وأفعاله ووجهه ويديه وحكمته بتلك الأسماء، وتلقيب من أثبتها له بهذه الألقاب لعنة أهل الإثبات والسنة وتبديعهم وتضليلهم وتكفيرهم وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها<sup>(١)</sup>.

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة، فها هم سلف هؤلاء المبتدعة في واقعنا المعاصر من ليبراليين وعلمانيين ومرجئة وصوفية يرمون الدعاة والمجاهدين من أهل السنة بالمتحجرين والظالمين والإرهابيين ودعاة فتنة وخوارج.

**السبب الثالث:** أن يعزو المتأول تأويله وبدعته إلى جليل القدر نبيه الذكر من العقلاء، أو من آل البيت النبوي، أو من حل له في الأمة ثناء جميل ولسان صدق؛ ليحليه بذلك في قلوب الأغمار والجهال، فإن من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه، وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم، حتى إنهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله، ويقولون هو أعلم بالله ورسوله منا.. وهذا ميراث بالتعصب من الذين عارضوا دين الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، فإنهم لحسن ظنهم بهم وتعظيمهم لهم آثروا ما كانوا عليه على ما جاءهم به الرسل، وكانوا أعظم في صدورهم من أن يخالفوهم، ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كل مقلد لمن يعظمه فيما خالف فيه الحق إلى يوم القيامة.

**السبب الرابع:** أن يكون ذلك التأويل قد قبله ورضيه مبرز في صناعة من الصناعات أو علم من العلوم الدقيقة أو الجلييلة، فيعلو له بما برز به ذكر في الناس ويشتهر له به صيت، فإذا سمع الغمر الجاهل بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له أحسن الظن به، وارتضاه مذهباً لنفسه، ورضي من قبله إماماً له، وقال: إنه لم يكن ليختار مع جودة قريحته وذكائه وصحة ذهنه ومهارته بصناعته وتبريزه فيها على بني جنسه، إلا الأصوب والأفضل من الاعتقادات والأرشد والأمثل من التأويلات وأين يقع اختياري من اختياره، فرضيت لنفسي ما رضيه لنفسه، فإن عقله وذهنه وقريحته إنما تدله على الصواب، كما دلته على ما خفي عن غيره من صناعته وعلمه.

وهذه الآفة قد هلك بها أمم لا يحصيهم إلا الله، رأوا الفلاسفة قد برزوا في العلوم الرياضية والطبية، واستنبطوا بعقولهم وجودة قرائحهم ما عجز أكثر الناس عن تعلمه، فقالوا: للعلوم الإلهية والمعارف الربانية أسوة بذلك... وما عرف أصحاب هذه الشبهة أن الله سبحانه قد يعطي أجهل الناس به وبأسائه وصفاته وشرعه من الحذق في العلوم الرياضية والصنائع العجيبة ما تعجز عنه عقول أعلم الناس به ومعارفهم، وقد قال النبي ﷺ: «أنتم أعلم بدينكم»<sup>(١)</sup>.

**السبب الخامس:** الإغراب على النفوس بما لم تكن عارفة به من المعاني الغريبة، التي إذا ظفر الذهن بإدراكها ناله لذة من جنس لذة الظفر بالصيد الوحشي الذي لم يكن يطمع فيه، وهذا شأن النفوس فإنها موكلة بكل غريب تستحسنه وتؤثره وتنافس فيه.. ثم اختاروا لتلك المعاني الغريبة ألفاظاً أغرب منها، وألقوها في مسامع الناس، وقالوا: إن المعارف العقلية والعلوم اليقينية تحتها، فتحركت النفوس لطلب فهم تلك الألفاظ الغريبة، وإدراك تلك المعاني. واتفق أن صادفت قلوباً خاوية من حقائق الإيمان وما بعث الله به رسوله، فتمكنت منها فعز على أطباء الأديان استنقاذها منها، وقد تحكمت فيها..

**السبب السادس:** تقديم مقدمات قبل التأويل تكون كالأطناب والأوتاد لفسطاطه، فمنها: ذم أصحاب الظواهر وعيهم والإزراء بهم، وأنهم قوم جهال، لا عقول لهم، وإنما هم أصحاب ظواهر سمعية، وينقلون من مثالبهم وبلههم ما بعضه صدق وأكثره كذب.

(١) مسلم بلفظ: «أنتم أعلم بأمور دينكم» (٢٣٦٣).

ومنها: قولهم: إن الخطاب بالمجاز والاستعارة أعذب وأوفق وألطف، وقد قال بعض أئمة النحاة: أكثر اللغة مجاز، فإذا كان أكثر اللغة مجازاً سهل على النفوس أنواع التأويلات، فقل ما شئت، وأول ما شئت، وأنزل عن الحقيقة ولا يضر كأي مجاز ركبته.

ومنها: قولهم: إن أدلة القرآن والسنة أدلة لفظية، وهي لا تفيد علماً ولا يقيناً، والعلم إنما يستفاد من أدلة المعقول وقواعد المنطق.

ومنها: قولهم: إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل على النقل، فهذه المقدمات ونحوها هي أساس التأويل، فإذا انضمت هذه الأسباب بعضها إلى بعض، وتقاربت فيا محنة القرآن والسنة، وقد سلكا في قلوب قد تمكنت منها هذه الأسباب، فهناك التأويل والتحريف والتبديل والإضمار والإجمال<sup>(١)</sup>.

وبعد أن بين الإمام ابن القيم رحمه الله هذه الأسباب التي أدت إلى الوقوع في التأويل، ذكر الأسباب الجالبة له التي ساعدت على انتشاره، فقال رحمه الله:

(وهي أربعة أسباب: اثنان من المتكلم، واثنان من السامع.

فالسببان اللذان من المتكلم:

- إما من نقصان بيانه، وإما سوء قصده.

واللذان من السامع:

- إما سوء فهمه، وإما سوء قصده.

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/٤٣٦-٤٥١) (باختصار).

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة انتفى التأويل الباطل، وإذا وجدت أو بعضها وقع التأويل.. فإذا كان المتكلم قد وفى البيان حقه، وقصد إفهام المخاطب وإيضاح المعنى له وإحضاره في ذهنه، فوافق من المخاطب معرفة بلغة المتكلم وعرفه المطرد في خطابه، وعلم من كمال نصحه أنه لا يقصد بخطابه التعمية والإلغاز، لم يخف عليه معنى كلامه، ولم يقع في قلبه شك في معرفة مراده.

وإن كان المتكلم قد قصر في بيانه وخاطب السامع بألفاظ مجملة تحمل عدة معان، ولم يتبين له ما أراده منها، فإن كان عاجزاً أتي السامع من عجزه لا من قصده، وإن كان قادراً عليه ولم يفعل حيث ينبغي فعله أتي السامع من سوء قصده..

ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أولى أن يصار إليه، مما فهمه من بعدهم، فانضاف حسن قصدهم إلى حسن فهمهم، فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله واليوم الآخر، ولا يحفظ عنهم في ذلك خلاف لا مشهور ولا شاذ، فلما حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه وساء قصده، وقعوا في أنواع من التأويل بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق ومعاداة لأهله واستحلال ما حرم الله منهم.

وإذا تأملت أصول المذاهب الفاسدة رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسة في رياسة أو مال أو توصل إلى عرض من أعراض الدنيا تخطبه الآمال وتتبعه الهمم وتشرئب إليه

النفوس، فيتفق للعبد شبهة وشهوة، وهما أصل كل فساد ومنشأ كل تأويل باطل، وقد ذم الله - سبحانه - من اتبع الظن وما تهوى الأنفس، فالظن الشبهات، وما تهوى الأنفس الشهوات<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

بعد هاتين المقدمتين عن الشبهات والتأويل الفاسد وآثارهما الخطيرة في لبس الحق بالباطل والتشويش على إيمان الناس وأخلاقهم، نعود إلى أصل الموضوع، ألا وهو دور أهل العلم والدعاة إلى المنهج الحق في التصدي لهذه الشبهات والتأويلات الفاسدة، وأن هذا ضرب من ضروب الجهاد في سبيل الله ﷻ لا يقل إن لم يفق جهاد الكفار باليد والسنان، لأن الجهاد بالسنان يكفي فيه النية الصادقة والدربة على فنون القتال؛ ليكون صالحاً وفاعلاً في هذا النوع من الجهاد، أما الجهاد بالبيان والحجة ورد تأويلات المبطلين والمشبّهين فلا يصلح له إلا من آتاه الله العلم والبصيرة النافذة في الدين مع التقوى واليقين.

وقد سبق في أول المبحث السابق ذكر بعض مظاهر الغزو الفكري، وإثارة الغبش حول العقيدة الصحيحة، عقيدة أهل السنة والجماعة، وأساليب هذا الغزو في التشويش على أصول الدين وأحكامه وعلى تاريخ المسلمين. ويحسن هنا ذكر بعض الردود على هذه المظاهر مشاركة في جهاد البيان، وهي على سبيل المثال في جهاد المبطلين لا على سبيل الحصر.

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٥٠٠-٥١٠) (باختصار).

## أولاً: التصدي للهجوم على عقيدة الولاء والبراء وإزالة الشبهات المثارة حولها

وقد سبق الإشارة إلى أهم هذه الصور التي يسعى فيها أعداء الدين بتسليط معاولهم لهدم هذا السور المنيع الذي حفظ الله ﷻ به هوية المسلمين وولاء بعضهم لبعض، وتميزهم عن الكفار طيلة التاريخ الإسلامي، ألا وهو سور الولاء والبراء، ومن أهم هذه الصور:

أ- قولهم: إن الولاء والبراء يتعارض مع التسامح الديني والإخاء، وعليه ينبغي أن نلغي مصطلح (المسلم والكافر)، ونستبدله (بنحن والآخر)!! وعلمنا أن نبدي تسامحنا مع الآخر. ولا يخفى تهافت هذه الشبهة وسرعان ما تذوب وتضمحل عند الرجوع إلى كتاب الله ﷻ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ويكفي في ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقوله تعالى: الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِ إِنَّا بِكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ...﴾ الآية [المتحنة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ الآية [المائدة: ٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ...﴾

الآية [الحشر: ٢]، وختاماً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَلَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٢ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٣ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ٤ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ٥ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

فهل بعد هذه الآيات البينات الواضحات عذر لمن ينادي بمحبة الكافر والتسامح الديني معه، وعدم تسميته بالكافر؟ ولزيد من التفصيل أذكر فيما يلي بعد المؤاخذات العقيدة في هذا الطرح:

أولاً: العدول عن الأسماء والمصطلحات الشرعية التي جاءت في كتاب الله ﷻ وفي سنة نبيه ﷺ إلى أسماء ومصطلحات بشرية غامضة، ونحانات أفكار واهية، أفرزتها عقول مهزومة، فاستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتركت ما أسماه الله ﷻ من الأسماء المنطبقة على مسمياتها في كتابه - سبحانه وتعالى -، حيث قسم الناس إلى حزبين: حزب الله المؤمنين وحزب الشيطان الكافرين، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ مَالُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فليس هناك (نحن والآخر) وإنما هناك (المسلمون والكافرون)، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، والآيات في ذكر الكفر والكافرين كثيرة جداً، جاء ذكرها في ما يزيد على ٣٥٢ موضعاً، فلماذا التخرج من كلام الله ﷻ الذي هو أحسن الحديث وأصدق وأفصح: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

إن من يتخرج من كلام الله ﷻ وتسمياته، ويرتاح لكلام البشر ومصطلحاتهم ومسمياتهم يخشى عليه أن يكون تحت طائلة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

لقد نهى الله ﷻ نبيه ﷺ وأتباعه من بعده من أن يكون في الصدور حرج من الصدع بكل ما جاء في القرآن من أسماء وأحكام، وعقائد وقصص وأخبار، بل الواجب اتباعه، فقال تعالى: ﴿الْمَصِّ ۝١﴾ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢].

وعند هذه الآية يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه؛ ارتفع به عنها ذلك الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَهْدِهِ وَيُشْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] <sup>(١)</sup> ١.هـ.

ويقول أيضاً في موطن آخر: (ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى، ثم ارض لنفسك بما تشاء) <sup>(٢)</sup> ١.هـ.

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥١٨) (باختصار).

(٢) «الفوائد» (ص ٩٠).

ثانياً: لو أن الأمر في استبدال (الآخر) بالكافر توقف عند الاستبدال اللفظي لكان الأمر أهون مع مخالفته لكلام الله ﷻ كما تبين، ولكن الخطورة في هذا الاستبدال يتجاوز اللفظ إلى الهزيمة النفسية أمام الآخر الكافر، وذلك بالدعوة إلى عدم الكراهية له، وإخفاء ظلمه، وعدوانه، وإرهابه، وكأنه مظلوم قد سلبت حقوقه!! ويشعر السامع من الذين يطرحون مصطلح (الآخر) بأنهم يعيشون تحت ظرف سياسي داخلي أو خارجي صور لهم الآخر، وكأنه مظلوم يريد من ينصره ممن ظلمه!

واعتمدوا في ذلك على نصوص في الكتاب والسنة تدعو إلى التسامح والبر والقسط مع الكفار، وحرفوها عن معانيها، وفصلوها عن مناسباتها التي نزلت فيها، ونسوا أو تناسوا الآيات التي فيها وجوب عداوة الكافر والبراءة منه، وجهاده حتى يكون الدين كله لله، فالبر والقسط شيء، والموالاة والنصرة شيء آخر.

(إن رفع شعار التسامح والصفح مع الكفار اليوم ليوضع في غير موضعه، لأن في ذلك خلط وتلبيس وتضليل، حيث تسمى الموالاة والمداهنة للكفار تسامحاً ومداراة، وفرق كبير بين المداراة والمداهنة التي فيها تصحيح مذاهب الكفار أو السكوت عليها، وإظهار المحبة لهم ونسيان عداوتهم وحربهم للمسلمين في القديم والحديث، إن الذين كفروا من أهل الكتاب هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً، وأهل الكتاب، هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم

الذين شردوا المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان، في الحبشة والصومال وأرتيرية، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان، وهم الذين قتلوا أهلنا ونساءنا وأطفالنا في أفغانستان والعراق، ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر، ندفع به الإلحاد والإرهاب، إن هؤلاء لا يتدبرون القرآن الكريم، وإلا لما اختلطت عليهم دعوة السحاحة التي هي طابع الإسلام بدعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن الذين يحاولون تجميع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان، كما يخطئون في فهم معنى التسامح، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي، إنهم يحاولون تجميع اليقين الجازم في نفس المسلم، بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام، ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً -ولو طفيفاً- هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم، وهو يقرر ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ

مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴿[المائدة: ٥١]﴾، وفي القرآن كلمة الفصل ولا على المسلم من تميع المتميعين وتميعهم لهذا اليقين<sup>(١)</sup>.

#### ب- الدعوة إلى وحدة الأديان والتقارب بينها والتواد بين أهلها:

إن من الفتن الخطيرة التي ترقق ما قبلها، والتي كانت تطرح ما بين الفينة والأخرى، ولكنها اليوم تطرح بقوة وكثافة أكثر من أي وقت مضى، فتنة الدعوة إلى الحوار بين الأديان والتقارب بينها، حيث تعقد لها الندوات والمؤتمرات، ويشعر المراقب لهذه الفتنة ومن يتولى كبرها أنها تطرح بصورة تتسم بالكيد والمكر والتليس، ويتولى الإعلام بشتى وسائله الدعوة لها وتزيينها للناس بشبهات باطلة، يخشى أن تنطلي على كثير من جهلة المسلمين إن لم يجدوا من يبين لهم حقيقة هذه الدعوة الخبيثة، ويكشف عوارها وزيفها وضلالها.

ومع خطورة هذه الدعوة ومساسها بثوابت هذا الدين وأصوله، إلا أن من انبرى لكشف حقيقة هذه الدعوة في هذه الأيام هم قلة من الدعاة والعلماء من أمثال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في رسالته القيمة «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان»، والشيخ عبدالعزيز آل عبد اللطيف في كتابه «نواقض الإيمان القولية والعملية». والحوار الذي أجراه موقع شبكة نور الإسلام مع الشيخ عبدالعزيز الطريفي، والرسالة العلمية التي كتبها الشيخ أحمد القاضي بعنوان: «دعوة التقريب بين الأديان». فجزاهم الله خيراً وبارك في جهودهم.

(١) انظر: (طريق الدعوة) أحمد فايز (بشيء من التصرف والاختصار).

ومع ما في ردودهم من القوة والشمول، إلا أن الأمر من الخطورة بحيث يحتاج إلى مزيد من الطرح والفضح والتكثيف في الوسائل المتاحة المتنوعة التي تصل إلى جميع شرائح الناس، لعلهم يفقهون حقيقة هذه الدعوة وخطرها وضلالتها وبطلانها.

وإسهاماً في مدافعة هذه الدعوة الباطلة أكتب هذه الوقفات السريعة، مستفيداً ممن سبقني من المشايخ الكرام، أسأل الله ﷻ في ذلك الهدى والسداد:

#### الوقفة الأولى: (دين الله الحق واحد وليس عدة أديان)

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال -سبحانه-: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. هذا كلام الله، ومن

أُصدق من الله حديثاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾<sup>(١)</sup> وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[الأنعام: ١١٥]﴾. فهل بعد هذا البيان من بيان في أن دين الله الحق واحد، وهو الإسلام وليس عدة أديان، وهل يجوز للمسلم وهو يقرأ ويسمع هذه الآيات البينات المحكمات أن يقبل فكرة التقارب بين الأديان أو التمازج معها على أساس الندية والاعتراف بها؟!

إن دين الله الحق واحد، وليس هناك شيء اسمه الأديان السماوية أو الإبراهيمية؛ لأن دين الأنبياء جميعاً واحد هو الإسلام، قال ﷺ: «أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عِلَاتٍ، وَأُمَمَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ»<sup>(٢)</sup>. فدين إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - هو الإسلام لا غير: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ مَاءَمْنُم بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال سبحانه عن عيسى - عليه السلام - وحوارييه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

واللافت في جل الآيات السابقة أنها في سورة آل عمران، وقد نزلت في الحوار مع نصارى نجران، حيث كان الحوار صريحاً حاسماً، وذلك بإعلان البراءة من دين النصارى الوثني المحرف، ودعوتهم إلى ترك

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (٢٣٧٥).

كفرهم وشركهم، ودعوتهم إلى الدخول في دين الإسلام القائم على عبادة الله وحده وتوحيده والبراءة من الشرك وأهله.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (والمقصود أن كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه. قال أبو العالية: رغبتم اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله، وتركوا دين إبراهيم<sup>(١)</sup>). فأين هذا من الدعوة الباطلة التي تطرح اليوم بقبول دين اليهود والنصارى أو عدم التعرض له بالنقد والتضليل والبراءة، بل والتقارب معه بحجة محاربة الإلحاد، وفي نشر السلام والتسامح والعدل!!

وسبحان الله العظيم كيف يقترب فضلاً عن أن يتحد شيئان متضادان. كيف يجتمع التوحيد القائم على عبادة الله وحده لا شريك له مع الشرك القائم على عبادة غير الله، وكيف يجتمع من يقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] مع من يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، ومع من يقول: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ ومع من يقول: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً، كيف يجتمع الموحد ويتقارب مع من يقول الله ﷻ عنه وعن شناعة معتقده: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٥٧٢).

﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، إن المتضادين لا يجتمعان أبداً لا في عالم الجسادات ولا في عالم الحيوانات إلا على وجه المغالبة، حتى يذوب أحد المتضادين في الآخر، وإلا فإنهما حسب السنن الكونية سيبقيان متنافرين، لا يلتقي أحدهما بالآخر، إلا أن يلتقي الضب بالحوث.

### الوقف الثانية: (متى يكون الحوار مع الكفار مقبولا؟)

إذا تبين أن فكرة الوحدة أو التقارب بين الإسلام والكفر مستحيلة عقلاً وشرعاً، وإن وجد من يقبلها فيما أن يكون جاهلاً لا يدري ما معنى التوحيد، ولا ما هو الشرك؟ أو يكون عالماً بذلك لكنه مكر مغرض يريد هدم الإسلام ونشر الكفر.

إذا تبين لنا ذلك فسيبقى أمامنا سؤال مفاده: متى يكون الحوار مع الكفار مقبولا؟

والجواب -والحمد لله- واضح وجلي، قد بينه الله ﷻ في كتابه الكريم، وذلك أن الصورة المقبولة من الحوار مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، هو دعوتهم إلى التوحيد ودخولهم في الإسلام واتباعهم لمحمد ﷺ، وترك ما هم عليه، وإن رفضوا، فهم كفار نبرأ منهم ومن كفرهم ونحذرهم ولا نظلمهم. وقد سبق في الوقفة السابقة سرد بعض الآيات التي فيها محاورة أهل الكتاب في بيان شركهم ودعوتهم إلى التوحيد، وأخص منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، وصورة أخرى للحوار مع الكفار في حالة القتال معهم، سواء في جهاد الطلب ودعوتهم قبل القتال إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، أو كان في جهاد الدفع في حالة ضعف المسلمين في التفاوض معهم في دفعهم عن ديار المسلمين بهدنة، أو صلح أو نحو ذلك، وكل هذه المحاورات تتم دون التنازل عن عقيدة التوحيد أو الاستحياء من طرحتها، ودون تحسين دين الكفار أو قبوله. وهذه الصورة من الحوار مرفوضة أصلاً عند الكفار ولا يقبلون بها. أما الصورة المرفوضة من الحوار مع الكفار في دين الإسلام التي يدعو إليها الكفار، فهي التي تطرح هذه الأيام، وتعتقد لها الندوات والمؤتمرات. والتي يراد منها أن تكون طريقاً إلى التقارب مع أديانهم الباطلة والسكوت عن كفرهم وإبطال عقيدة الولاء والبراء من ديننا، فلا براءة من المشركين ولا عداوة ولا كره للكافرين. كل ذلك باسم الحوار والدعوة إلى زمالة الأديان، ونشر السلام وبث التسامح معهم.

### الوقفه الثالثة: (أهداف هذه الدعوة)

الجدير بالذكر أن الغرب اليهودي الصليبي هو من وراء هذه الأطروحات الماكرة، وقد تشر بها بعض المسلمين إما جاهلاً بحقيقتها أو خبثاً ومكرًا ونفاقاً. ويمكن ذكر بعض أهداف الحوار بين الأديان التي يسعى إليها الغرب الكافر وذلك فيما يلي:

١- باعث الصد عن سبيل الله ﷻ وبخاصة دين الإسلام الذي رأى الغرب أن أبناءه يدخلون في الإسلام زرافات ووحداناً، فأرادوا التلبيس على شعوبهم بأن الفروق بين الأديان فروق شكلية، كلها تؤدي إلى عبادة رب واحد، فلا حاجة للتغيير.

٢- باعث هدم أصول الدين الإسلامي وثوابته، وخاصة أصل الولاء والبراء الذي يقتضي تكفير الكافر وبغضه والبراءة منه ومن كفره وهذا غاية ما يسعون إليه في هذه الدعوات الماكرة، وبخاصة في هذه الأزمنة المتأخرة التي استيقظ فيها المسلمون، ورأوا صوراً صارخة من عدا الكفار وعدوانهم وحقدهم على الإسلام وأهله. ومن الشعائر التي أقضت مضاجع الكفار ووقفت شوكة في حلوقهم شعيرة الجهاد التي انبعثت في هذه الأمة قولاً وعملاً وذاق العدو الكافر الأمرين من ضربات المجاهدين. فجاءت هذه الدعوات الخبيثة لتدجن المسلمين وتبعدهم عن مقومات حياتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وجاءت لتجنيد كثير من حكام المسلمين وبعض المهزومين من المسلمين في مواجهة المجاهدين والمنادين بالبراءة من الكفار وبغضهم وعداوتهم.

٣- باعث التنصير حيث طرح مجلس الكنائس العالمي أن الحوار وسيلة مفيدة للتنصير، لأنه وسيلة لكشف معتقدات وحاجيات الآخر، وهي نقطة البداية الشرعية للتنصير.

٤- إسقاط جوهر الإسلام واستعلائه وظهوره وتميزه بجعل دين الإسلام المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل في مرتبة متساوية مع غيره من كل دين محرف ممسوخ، بل مع العقائد الوثنية الأخرى.

٥- الاعتراف بأديانهم واحترام عقائدهم، وتجنب البحث في المسائل العقدية الفاصلة للحفاظ على استمرار الحوار.

٦- الدعوة إلى نسيان الماضي التاريخي والتخلص من آثاره، كالذي حصل من الصليبيين في حروبهم الصليبية، وما قاموا به من ظلم وتقتيل وتشريد للمسلمين. والدعوة إلى فتح صفحة جديدة بين الأديان يسودها السلام والعدل والتسامح بزعمهم. ولا يخفى على اللبيب خبث هذه الدعوة وما وراءها، ولكنها لا تنطلي على المسلم الواعي لعقيدته، الواعي لتاريخه، الواعي لواقعه المعاصر، الذي يمارس فيه هؤلاء الكفار الذين يدعوننا إلى الحوار شتى صور القتل والتعذيب والتشريد في بلدان المسلمين، ويكفي ما يدور الآن في العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال من الغرب الصليبي اليهودي، الذي تتولى كبره أمريكا الطاغية الكافرة.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة بين المسلمين والكفار بحجة التسامح والتقريب والحوار بين أهل الأديان يخطئون في فهم دين الله الحق، وفهم الأديان المخالفة كما يخطئون فهم معنى التسامح وفهم الواقع الأليم، فالغرب الكافر يريد من المسلمين أن يتسامحوا من طرف واحد، ويتقبلوا العدوان عليهم، والتقتيل والاحتلال، ويستسلموا للأعداء، أما هو فلا حسيب على عدوانه وحقده، لأنه جاء ينشر الحرية والعدل والديمقراطية بزعمه، ومع ذلك نجد من بني جلدتنا من يحسن الظن بعدونا الكافر، ولا ندري هل هذا جهلاً منه أو خبثاً ومكرًا؟!؟

#### الوقفة الرابعة: (المخرج من هذه الفتنة)

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويقول الرسول ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بِهِمَا: كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷻ في حديث الفتن التي يرقق بعضها بعضاً قوله: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِئِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

هذا هو المنقذ من هذه الفتنة ومن غيرها: الاعتصام بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ والسير على هديهما، وفي كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ من الأدلة التي تدحض هذه الفتن وغيرها، وذلك في بيان حقيقة الإيمان بالله ﷻ وتوحيده وبيان سبيل الكافرين، وتفنيد عقائدهم الباطلة ما يكفي ويشفي لمن تدبرهما، وجعلهما المصدر الوحيد لفهمه وحكمه وتحاكمه وفي ولائه وفي برائه.

والإيمان الحق بالله ﷻ واليوم الآخر هما ثمرة من ثمار الاعتصام بالكتاب والسنة، والإيمان بالله الحق واليوم الآخر هما العاصمان بإذن الله ﷻ من الوقوع في فتن الاعتقادات والأقوال والأعمال، كما جاء في حديث الفتن

(١) رواه مالك في «الموطأ» وذكره الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١/ ٢٧٧) وقال: رواه الحاكم (١/ ٩٣) بسند حسن فيقوى به.

السالف الذكر: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»<sup>(١)</sup>.

هذا هو المتعين على كل مسلم يريد لنفسه النجاة. كما أن المتعين على علماء السنة في ديار المسلمين بيان الحق للناس، وربطهم بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف الصالح ﷺ، وبيان ما يضاد ذلك من سبيل الكافرين والمنافقين والمبتدعين. ويتأكد هذا الواجب في زماننا اليوم الذي كثرت فيه الفتن، وأجلب فيه المضلون والملبسون الصادون عن سبيل الله بخيلهم ورجلهم، يريدون تبديل الدين وزعزعة التوحيد في قلوب أهله، فإن لم ينفر العلماء وطلاب العلم في رد هذه الفتن المستطيرة تكن فتنة في الأرض وفساد كبير على الناس في دينهم وإثم كبير على الساكت من أهل العلم قال الله - عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا فَيُسَّ مَا يَشْتُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَإِثْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، أي لبئس ما يصنعه أهل العلم من الربانيين والأخبار بسكوتهم وعدم نهيمهم الناس عن الإثم، إن بيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين للناس هو ضرب من الجهاد في سبيل الله فما أعظمه من جهاد.

(١) مسلم (١٨٤٤).

### ج- الغلو في رابطة الوطنية وتقديمها على رابطة الدين:

إن من أخطر المعاول التي تستخدم اليوم لهدم عقيدة الولاء والبراء معول (الوطنية) الذي يراد منه إحلال رابطة الوطن محل رابطة التوحيد، وذلك في عقد الولاء والبراء بين أبناء المجتمع المسلم على أساسها.

إن حب الوطن ومكان المنشأ والحنين إليه طبع جبلي فطري مغروس في النفوس، ولشدة مفارقة الأوطان على النفوس رتب الله ﷻ عليه الثواب العظيم للمهاجرين في سبيله المفارقين لأوطانهم من أجله.

يقول الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وها هو بلال رضي الله عنه يحن إلى وطنه الأصلي مكة بعد أن هاجر منها، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبين ليلة... بوادٍ وحولي إذخر وجليل

فهذا الحب والحنين لا ضير فيه ولا لوم، وليس نزاعنا مع دعاة الوطنية في هذه المسألة.

إنما اللوم والانحراف والنزاع في جعل الانتماء إلى الوطن الواحد هو معيار الولاء والمحبة والنصرة لكل من يعيش تحت مظلة الوطن الواحد، ولو كان مشركاً أو منافقاً، وجعله هو المقدم والمكرم على من ليس من أبناء الوطن ولو كان مسلماً صالحاً تقياً، إن هذا هو الانحراف والعودة

إلى موازين الجاهلية ومعاييرها في الولاء والنصرة، وفي العداوة والبراء، نعم إذا كان المواطن موحداً صالحاً خيراً فهذا نور على نور، ولا تثريب على من وجد ميلاً أكثر إلى الموحد الصالح من قرابته أو قبيلته أو من أبناء وطنه. أما أن يجد ميلاً ومحبة وتآخياً مع أهل الشرك والنفاق، ويجعله يسكت عن شركهم ونفاقهم؛ لأنهم من أبناء وطنه، فهذا هو المرفوض في ميزان الله ﷻ. قال الله ﷻ عن نوح -عليه السلام- حينما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي بَنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

إنه لا يخفى ما في (الوطنية) بالمفهوم الجاهلي من هدم لعقيدة الولاء والبراء في هذا الدين، فكم في الوطن الواحد من العقائد الباطلة الكفرية التي يخرج صاحبها من الإسلام، كمن يعبد غير الله ﷻ ويستغيث به ويدعي أن غير الله تعالى يعلم الغيب كغلاة الشيعة والصوفية، وكم في الوطن الواحد من يكفر أصحاب محمد ﷺ ويعاديهم، ويقذف نساء النبي ﷺ العفيفات الطاهرات، وكم في الوطن الواحد من المنافقين الذين يبطنون العداة للإسلام وأهله، ويوالون الغرب وأهله، فهل هؤلاء هم منا ونحن منهم؛ لأننا وإياهم نعيش في وطن واحد؟ إننا بهذا الفهم نعود إلى صورة من صور الجاهلية الأولى، التي جاء هذا الدين للقضاء عليها، وجعل رابطة العقيدة والإيمان فوق كل رابطة، يعادى من أجلها، ويوالى من أجلها، ويجب من أجلها، ويبغض من أجلها.

قال ﷺ: «مَنْ تَعَزَّى بَعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَأَعْضُوهُ بِهِنَّ أَبِيهِ وَلَا تَكُنُوا».

فسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا فلان! فقال: اعرض إيريك، فقال: يا أبا المنذر! ما كنت فاحشاً، فقال: بهذا أمرنا رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

ويشرح شيخ الإسلام هذا الحديث، فيقول: (ومعنى قوله: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ» يعني يتعزى بعزائهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يا لقيس! يا ليمن! ويا لهلال! ويا لأسد، فمن تعصب لأهل بلده، أو مذهبه، أو طريقته، أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله)<sup>(٢)</sup>.

وقد وقفت على دراسة مهمة يتحدث فيها كاتبها د. أحمد محمود السيد عن فقه المواطنة وأصولها الغربية في الجاهلية المعاصرة، ونظراً لأهميتها وعلاقتها بموضوعنا أنقل بعض ما ورد فيها، حيث يقول وفقه الله تعالى: (في هذه الأيام يتردد لفظ المواطنة على ألسنة المهتمين بالعمل السياسي ودعاة العلمانية وأنصار المنهج العلماني بوجه عام، ولا غضاضة في هذا ولا عجب، حتى وإن ادعى هؤلاء أنه لا يتعارض مع الإسلام، أو أن الإسلام قد عمل به وأسس، بل العجب كل العجب أن ينبري بعض الشيوخ وعلماء الشريعة لإثبات أنه مبدأ إسلامي أصيل، وأنه مضمون هذا المفهوم مماثل لما جاء به الشرع الحنيف!

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤٢٢/٢٨).

والأدهى من ذلك أن السيناريو نفسه يتكرر كما حدث في الستينيات مع الاشتراكية، هناك من كتب عن «المواطنة في الإسلام»، و«المواطنة عند رسول الله»، و«المواطنة في الشريعة الإسلامية»، و«المواطنة مبدأ إسلامي أصيل»، و«مبدأ المواطنة أهم دروس الهجرة»، وهناك من استدل بآيات قرآنية وتفسيرات، حاول أن يلوي فيها أعناق الآيات، لكي تعبر عن مفهوم المواطنة الغربي، مؤكداً تطابقها مع تفسيرات القرآن!

تعالوا نتفهم معنى المواطنة في دولة المنشأ؛ لنعرف إن كانت تصلح كمبدأ إسلامي أم لا..

يعرف قاموس المصطلحات السياسية «المواطنة» بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية، تقوم بين شخص طبيعي، وبين مجتمع سياسي (الدولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتحدد هذه العلاقة بين الشخص والدولة بالمساواة أمام القانون «الوضعي» في ظل هيمنة الدولة القومية.

ويعبر مفهوم المواطنة بمعناه الحديث عن تطور شديد التعقيد صاغته أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر، خلال عمليات تاريخية واجتماعية وسياسية، تم فيها الانتقال من الحق الإلهي المقدس إلى حق المواطن، ومن هيمنة الكنيسة إلى هيمنة الدولة..

فالمواطنة كمبدأ سياسي لا تعمل بعيداً عن النظرية السياسية الغربية التي صاغتها، ولا يمكن أن تقطع من سياقها ليتم تفعيلها في نظام آخر

مختلف عقائدياً واجتماعياً وتاريخياً، فالنظام السياسي الإسلامي يقوم على مجموعة مبادئ تعمل معاً لتحقيق مبادئ الإسلام وهدية من خلال منظومة من الآليات مثل: الإمامة - أهل الحل والعقد - الشورى - الخلافة - الخ.. والتميز فيها يكون للمسلم، فلا يستوي المؤمنون والكافرون، وإذا كان معيار التفضيل هو التقوى، كما في الحديث «لَا فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِيٍّ وَلَا عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى»<sup>(١)</sup>، فإن هذه التقوى معناها الإسلام والإيمان الخالص، وهذا ليس معناه ظلم المخالفين في العقيدة، لكنهم في ظل الدولة الإسلامية يتعاملون من خلال العهود والمواثيق، التي تحفظ لهم حقوقهم، وتحفظ للدولة الإسلامية ما تفرضه عليهم من واجبات...

ولكن تأبى نفوس الذين تشربوا فكر الغرب ورضعوا من علمانيته، إلا أن يستبعدوا الإسلام من طريق سياسة الدنيا، ويستكثروا على أتباعه أن يحكموا بهديه ومبادئه، فتحاول هذه الفئة أن تلوي أعناق الآيات، وتغير في مضمون التفسير؛ لتوافق هواهم، وتوظف من منحهم صفة (المفكر الإسلامي)، كي يؤكدوا: أن الإسلام لا يتعارض مع تلك المصطلحات، بل يؤسس لها ويطبّقها، وتباركها شهادات لبعض الشيوخ والعلماء، متصورة أنها بهذا التلبس على الناس تكون قد ضمنت غسيل عقولهم وتحويل انتباههم لهذا الفكر.. ﴿لَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾<sup>(٤)</sup> لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]<sup>(٢)</sup> ١. هـ.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩).

(٢) انظر: موقع أنا المسلم.

هذه هي حقيقة الوطنية وملايسات نشأتها، وخطرها العظيم على عقيدة التوحيد والموالاتة والمعادة فيه، فهل يسوغ بعد ذلك لأحد أن يرفع سيف الوطنية في وجه كل من يرفض أن يكون الوطن هو الأساس الذي يعقد عليه الولاء والبراء، بغض النظر عن عقائد هؤلاء المواطنين ونحلهم؟ هل يجوز أن تكون رابطة الوطن فوق رابطة التوحيد؟ وهل يجوز أن يتآخى ويتحاب الموحدون مع المشركين والكفار والمنافقين، ويسكت عن كفرهم ونفاقهم بحجة أنهم أبناء وطن واحد؟! وبحجة أن الانطلاق من التوحيد في الولاء والبراء يفرق الأمة ويذكي الفتن الطائفية فيها؟

إن هذا هو ما يدعو إليه العلمانيون والباطنيون ومن تأثر بهم من المخدوعين من أبناء المسلمين.

ومن شبهاتهم في تكريس الوطنية والترويج لها زعمهم أنها تقضي على أشكال الطائفية التي تفرق الناس على أساس الدين أو العرق أو اللون، ولدحض هذه الشبهة أقول وبالله التوفيق:

إن لفظ الطائفة ورد في كتاب الله ﷻ وفي السنة الصحيحة، وذلك في مواطن كثيرة، والذي يهمننا من ذلك: المعنيان الكبيران لمفهوم الطائفة الوارد ذكرها في الكتاب والسنة.

المعنى الأول: إن الله ﷻ أطلق على المؤمنين اسم الطائفة كما أطلق في مقابلها اسم الطائفة على الكافرين أو المنافقين، وذلك في قوله تعالى عن من آمن من قوم شعيب -عليه السلام- ومن كفر منهم: ﴿وَإِنْ كَانَ

طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى  
يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ [الأعراف: ٨٧]، وكذلك قوله تعالى:  
﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤]، فسمى المؤمنين  
طائفة ويقابلهم طائفة الكفار الذين لم يؤمنوا، وليس بين هاتين الطائفتين  
التقاء ولا ولاء ولا محبة ولا نصرة، بل المتعين على طائفة المؤمنين البراءة  
من طوائف الكفر والنفاق، وبذل البغض والعداوة لهم، وجهادهم بالبيان  
والسنان كلاً بحسبه حتى يكون الدين كله لله وحده، فطائفة المؤمنين في  
شق، وطائفة الكفار والمنافقين في شق آخر. ولا يجوز للمسلم أن يستحيي  
من استخدام هذا المصطلح (الطائفية)، بل عليه أن يغتبط ويعتز بأنه من  
طائفة المؤمنين، وأنه مفاصل ومتبرئ من طوائف الكفر والنفاق.

إن الذين يتذرعون برفض الطائفية منطلقاً باسم الوحدة الوطنية  
أو القومية أو الإنسانية يريدون التوصل بذلك إلى ما يسمونه بالتسامح  
ورفض عقيدة الولاء والبراء وشريعة الجهاد وتقديس الوطن، وجعل  
أبناء الوطن الواحد أو الإقليم الواحد إخواناً ولو كان منهم اليهود  
والنصارى والمشركين والروافض الباطنيين والمنافقين. ويصفون الحروب  
التي تنشأ بين المؤمنين والكفار في بلد أو إقليم واحد بأنها فتنة طائفية  
وحروب أهلية، أما إنها طائفية فحق ونعتز بذلك، وأما أنها أهلية فلا،  
لأن الكفار ليسوا من أهلنا. وقد تأثر بهذه الشبهات بعض أبناء المسلمين  
فراحوا يدافعون عن أنفسهم، وينفون أن يكونوا طائفيين، وما علموا أن  
حربنا مع الكفار والمنافقين جهادية طائفية، وليست حروباً أهلية، لأن

الحروب الأهلية هي ما يحصل بين طوائف المؤمنين، كما سيتبين في الفقرة القادمة - إن شاء الله تعالى -.

أما الحروب التي تكون بين المؤمنين والكفار فإنها ليست أهلية، بل جهادية، لأن الكفار ليسوا أهلنا ولا من فئتنا، قال الله - عز وجل لنوح - عليه السلام - في ابنه من صلبه بعد أن أغرقه الله مع الكافرين: ﴿يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

المعنى الثاني: ورد ذكر الطائفة أيضاً في القرآن ويراد منها طوائف المؤمنين حسب مهماتهم أو أوصافهم، لكنهم كلهم يشملهم وصف الإيمان، كما في قوله ﷺ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ومن ذلك قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>. وكل طوائف المسلمين يجب بذل الولاء والنصرة لهم كل بحسبه، فكل مسلم من أهل القبلة يجب بذل الولاء العام له، ولا يتنفي عنه مطلق الولاء إلا بخروجه عن الإسلام، ولكن الولاء يكون بحسب ما يكون عليه المسلم، فإذا كمل صفات المسلمين والمؤمنين والتزم بعقيدة أهل السنة والجماعة، فله بذلك الولاء المطلق، وإن أخل بشيء من ذلك كما هو الحال في طوائف البدع غير المكفرة، فله مطلق الولاء، يوالى بما فيه من الخير والاتباع، ويتبرأ مما يتلبس به من الفسق والبدعة، ولا يتبرأ منه من جميع الوجوه إلا إذا خرج عن ملة الإسلام.

(١) البخاري (٣٦٤٠).

وإذا كان الولاء يبذل لكل طوائف المسلمين، فإن القتال بينهم يكون محرماً، لأنه قتال فتنة (إلا مع أهل البغاة). ويصدق على الحروب التي تكون بين المسلمين أنها أهلية يجب اجتنابها، والسعي في إخمادها، إلا في حالة قتال الصالحين من المسلمين كالبغاة والمحاربين.

وفي الختام نقول لمن يرفع سيف الوطنية ليسكت به أهل العلم الذين ينصحون للأمة، ويكشفون اللبس والتضليل عنها: كفى بكم يا أذعياء الوطنية ابتزازاً وتنطعاً واستهلاكاً لمصطلح الوطنية، فهي شنشنة نعرفها منكم، حيث تركبون هذا المصطلح؛ لتمرروا من خلاله أفكاركم ومخططاتكم، ولتستعدوا بها على أهل التوحيد الذين ينصحون للأمة والذين لا تنطلي عليهم مثل هذه الشعارات البراقة، لأنهم لا يرون شيئاً فوق عقيدة التوحيد والولاء لها ولأهلها، ويرفضون دعوة تهميش التوحيد والولاء والبراء فيه، ويقدمون الولاء لله تعالى على كل اعتبار من وطن وقبيلة وطائفة، ويرون أن توحيد الأمة لا يكون إلا بالتوحيد وتطهيرها من الشرك، وإلا فهو الفشل والفرقة والفتن، قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. أي أن فتنة الشرك أكبر من فتنة الاقتتال.

#### د- المغالطة بمصطلح الإنسانية

إن من الواجب على المسلم أن يزن كل شئونه ومواقفه بميزان الكتاب والسنة المبرء من الخلل والشطط؛ لأنه هو الذي يؤهله ليكون

أبعد الناس عن الانسياق وراء الشعارات والمصطلحات المضللة، مهما كان بريقها، ومهما كان مكر الأعداء في التلاعب بها وعرضها في قوالب مزخرفة، وفي واقعنا المعاصر يظهر لنا خبث أعداء هذا الدين من الكفار والمنافقين، وذلك في التلاعب بالمصطلحات والتلبيس على الناس بها، واستخدموا في ذلك وسائل الإعلام المختلفة التي يتحكمون بها، والتي ما تفتأ تبدئ وتعيد في طرح المصطلحات الغامضة والتلاعب بها في إضلال الناس وغسل أدمغتهم، وجعلها مع الوقت والتكرار أمراً مسلماً ومقبولاً لا يحتمل النقاش. ومن هذه المصطلحات المضللة مصطلح (الإنسانية) والدعوة إليه والترويج له، فما حقيقة هذه الدعوة المضللة وما أهدافها؟! وقد كشف حقيقة هذه الدعوة الخبيثة وأهدافها الأستاذ محمد قطب - حفظه الله تعالى - ومنذ ما يزيد على ثلاث عقود من الزمن، وكأنه يتحدث عن واقعنا المعاصر. أنقل منها بعض المقتطفات لتتضح حقيقة هذه الدعوة، ثم تنفيذها.

يقول وفقه الله تعالى:

(الإنسانية - أو العالمية كما يدعونها أحياناً - دعوى براءة، تظهر بين الحين والحين، ثم تختفي لتعود من جديد، يا أخي! كن إنساني النزعة، وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء.. دع الدين جانباً فهو أمر شخصي، علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب، لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين.. فإنه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر.. بين الأخوة في الإنسانية، تعال نصنع الخير لكل البشرية، غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين!

فلنصدق -مؤقتا- أنها دعوى مخلصه للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره أو سلوكه، فلنأخذ مثالا واحداً من العالم المعاصر.. من المعاملة التي يلقاها المسلمون في كل مكان في الأرض، يقعون فيه في حوزة غير المسلمين، أو في دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد...

فلننظر إلى «الإنسانية» التي يعاملون بها، «والسماحة» التي يقابلون بها، «وسعة الصدر»، و«حب الخير» الذي ينهال عليهم من كل مكان!

هذه فلسطين ظلت أربعة عشر قرناً من الزمان أرضاً إسلامية... ثم جاء اليهود ليقيموا عليها دولة يهودية.. ولم يستنكر أحد من «الإنسانيين» طرد السكان الأصليين وإجلاءهم عن أرضهم بالقنابل والمدافع، بل بشق بطون الحوامل والتلهي بالتراهن على نوع الجنين، كما فعلت العصابات اليهودية التي كان رأس إحداها مناحم بيغن... وإنما استنكرت من المسلمين أن يطالبوا بأرضهم، وألا يخلوها عن طيب خاطر للغاصبين!

ويطول الأمر بنا لو رحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين في قبضة غير المسلمين، أو الذين يتعرضون لعدوان غير المسلمين في كل مكان في الأرض... في روسيا الشيوعية التي قتلت ما يقرب من أربعة ملايين من المسلمين، وفي يوغسلافيا التي قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم، وفي أفغانستان التي تستخدم فيها الأسلحة المحرمة «دولياً» و«قانونياً» و«إنسانياً»! -ومثل ذلك في العراق والصومال- وفي أوغندا، وفي تنزانيا، وفي.. وفي.. وفي.. وفي..

فمال بال «الإنسانيين»؟ ما بالهم لا يتحركون؟! ما بالهم لا يصرخون في وجه الظلم الكافر، الذي لا قلب له ولا ضمير؟!

إنما توجه دعوى «الإنسانية» فقط ضد أصحاب الدين!

فمن كان متمسكاً بدينه فهو «المتعصب»، «ضيق الأفق» الذي يفرق بين البشر على أساس الدين، ولا يتسع قلبه «للإنسانية»، فيتعامل معها بلا حواجز في القلب أو في الفكر أو في السلوك!

أو قل على وجه التحديد: إن الذين يحاربون اليوم بدعوى «الإنسانية» هم المسلمون! يحاربون بها من طريقين، أو من أجل هدفين:

الهدف الأول: هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه الناشئ من إحساسه بالتمييز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض، وهدم عقيدة الولاء والبراء، لكي تنبهم شخصيته وتتميع.

والهدف الثاني: هو إزالة روح الجهاد من قلبه.. ليطمئن الأعداء ويستريحوا!!

فباسم الإنسانية يقال للمسلم الحق: يا أخي لا تعتزل الناس! إن الإنسانية كلها أسرة واحدة، فتعامل مع الأسرة كفرد منها، ولا تميز نفسك عنها! وشارك في النشاط «الإنساني» ومظاهر الحضارة الإنسانية.. تلك هي القضية! إن تمسك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الإسلام بصورة جنونية.. ولا يهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه

ومن وسائل ذلك كما أسلفنا دعوى الإنسانية والعالمية فإذا تميع بالفعل، ولم تعد له سمته المميزة له، احتقروه كما احتقرت أوروبا الأتراك بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم و«فرنجه» و«غريهم»! بينما يقول أحد المبشرين في كتاب «الغارة في العالم الإسلامي»: إن أوروبا كانت تفزع من «الرجل المريض» (وهو مريض) لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده، وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية أو الهدف الثاني من استخدام دعوى «الإنسانية» في محاربة المسلمين.

إن أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه!.. (ودعوى الإنسانية) من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين....

إن الإسلام صريح في توجيه أتباعه إلى التميز عن أحوال الجاهلية، التميز بنظافة السمات ونظافة الأخلاق ونظافة السلوك، والاستعلاء بالإيمان على كل مصدر ليس إسلامياً أو متعارض مع الإسلام، حتى لو لحقت بهم هزيمة مؤقتة أو ضعف طارئ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ومصدر التميز هو الإحساس بأنهم على الهدى وغيرهم على الضلال، وأن المنهج الذي يعيشون به هو المنهج الأعلى؛ لأنه المنهج الرباني، والذي يعيش عليه غيرهم هو المنهج الأدنى؛ لأنه منهج جاهلي، فهو ليس تميزاً مبنياً على الجنس ولا اللون ولا الجاه ولا الغنى ولا القوة، ولا أي معنى

من المعاني الأرضية التي تعتز بها الجاهلية، وتستعلي بها على الناس، إنما التميز المستمد من معرفة المنهج الرباني واتباعه<sup>(١)</sup> هـ.

ومن شبه الداعين إلى الإنسانية كهدف لحوار الحضارات قولهم: إن حوار المسلمين مع أهل الديانات الأخرى ليس حوار عقائد، وإنما هو حوار على القواسم المشتركة المتفق عليها بين الجميع؛ كخلق التسامح والعدل ومحاربة الظلم ونشر السلام والقيم الفاضلة، ولا يخفى ما في هذا الكلام من غباء ومغالطة ومخالفة لبداهات العقل والشرعية.

أي عدل، وأي أخلاق فاضلة يُطمع فيها من الكفار الذين كفروا بربههم، فهم بين ملحد دهرى أو مشرك مؤمن بعقيدة التثليث وتأليه عيسى -عليه السلام- أي عدل وخلق يطلب من الكفار الصليبيين، الذين قتلوا الملايين من المسلمين وشردوهم وسجنوهم، وحاصروا بلدانهم حتى مات مليون طفل من حصارهم في العراق وغزة وغيرهما. إن من كفر بالله ﷻ قد وقع في الظلم الأعظم، وعليه فلا يتوقع من هذه حاله إلا الظلم والأخلاق الرذيلة والاستبداد والطغيان، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧]، والواقع شاهد بذلك: إن من يرجو سلاماً أو عدلاً أو أخلاقاً طيبة من الكفار كمن يستنبت بذوراً في الهواء أو يحرث في البحر.

(١) «مذاهب فكرية معاصرة» (ص ٥١٠-٥٢٤) باختصار وتصرف يسير.  
ولمزيد من الرد على هذه النحلة الخبيثة انظر الردود في الصفحات السابقة على دعاة التسامح مع الكفار والتقارب معهم.

إنه لا شيء يضبط السلوك الإنساني ويزكي النفوس ويأطرها على محاسن الأخلاق وترك سيئها غير توحيد الله ﷻ والخوف منه سبحانه، ورجاء ثوابه، ومراقبته في السر والعلن، والشعور باطلاعه ﷻ على خفايا القلوب ومنحنيات الدروب، وهذا كله لا يأتي إلا بالتربية على التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته ومقتضياتها والتعبد له سبحانه بها، مما يكون له الأثر في ظهور آثارها على أخلاق الناس وسلوكياتهم، وإذا لم يوجد هذا الشعور وهذه التربية على العقيدة، فإنه لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس، مهما وضع من النظم والقوانين والعقوبات، فغاية ما فيها ضبط سلوك الفرد أمام الناس والقانون، فإذا غاب عن أعينهم ضاعت الأخلاق واضطربت القيم، وهذا هو الفرق في علاج انحراف النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله ﷻ القائم على تربية الناس على العقيدة وبين المناهج الجاهلية البعيدة عن منهج الله ﷻ، إن عقيدة التوحيد هي الأصل في إصلاح النفوس والأخلاق، وبدونها تفسد الأخلاق والقيم ولو صلحت بعض الأخلاق بدوافع أخرى غير العقيدة؛ كالعادات ورقابة القانون أو المصالح النفعية، فإنها لا تدوم بل تزول بزوال المصلحة أو الرقيب.

ويحسن بنا في هذه الوقفة تنبيه المخدوعين من أبناء المسلمين الذين انخدعوا ببعض الأخلاق النفعية التي يجدونها عند الكفار في ديارهم كالصدق في المواعيد والأمانة والوفاء بالعقود، إلى أن هذه الأخلاق لم يكن دافعها الخوف من الله ﷻ ورجاء ثوابه في الدنيا والآخرة، وإنما هي أخلاق

نفعية مؤقتة يريدون منها مصالحهم الخاصة والدعاية لهم ولشركاتهم، ولذلك فإنها لا تدوم معهم، وإنما تدور معهم حسب مصالحهم بدليل أن هذه الأخلاق تنعدم ويحل محلها الأخلاق السيئة من الكذب والخداع والظلم والطغيان إذا كانت مصالحهم تقتضي ذلك. ومراجعة سريعة للحروب الصليبية لبلدان المسلمين القديم منها والحديث يشهد على ذلك.

إذن فهم في تربيتهم الجاهلية يسعون لإنشاء المواطن الصالح الذي يسعى لمصلحته ومصلحة وطنه فحسب، ولو كان بالعدوان على دماء الآخرين وأموالهم والكذب عليهم وخداعهم، أما الإسلام فإنه ينشئ الإنسان الصالح، ذلك المسلم الرباني الذي تكون أخلاقه ثابتة معه في ليله ونهاره، في سره وعلايته، في سرائه وضرائه، في داخل وطنه وخارجه.

### ثانياً: التصدي لكشف تلبس الملبسين حول شعيرة الجهاد:

إنه لمن المؤسف أن يضع بعض الدعاة والمفكرين من المسلمين أنفسهم موضع المتهم المنهزم، الذي يريد أن يبرئ نفسه من تهمه، ويحسن وضعه عند خصمه. إن هذا المنهج الأعوج هو ما يتبناه اليوم بعض من قام بالرد على الملبسين من الكفار والمنافقين في قولهم: إن الإسلام انتشر بالسيف وسفك الدماء، فبادر هؤلاء بالرد عليه بقولهم: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولكن بالدعوة والبيان، وإنما كان السيف للدفاع عن النفس وعن الديار فقط!! ولا يخفى ما في هذا الكلام من مخالفة لما ذكره الله ﷻ في كتابه الكريم عن غاية الجهاد وما فيه أيضاً من مخالفة لسيرة الرسول ﷺ والخلفاء وأمراء المسلمين من بعده في تسيير الجيوش لفتح

الدنيا وإزالة الطواغيت الذين يصدون عن الدين الحق، وحتى لا تكون فتنة؛ أي شرك. ويكون الدين كله لله، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (والسيف إنما جاء منفذاً للحجة مقوماً للمعاند، وهدىً للجاحد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. دين الإسلام قام بالكتاب الهادي ونفذه السيف الماضي شعر:

فما هو إلا الوحي أوحى مرهف      يقيم ضباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل      وهذا دواء الداء من كل جاهل<sup>(١)</sup>

ويناقش صاحب «الظلال» هذه المسألة بكل عزة، فيقول: (إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر، وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر، يتخرجون من تقرير تلك الحقيقة؛ لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الحثثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المنافحون -المهزومون- عن سمعة الإسلام، بنفي هذا الاتهام! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في «تحرير الإنسان» ابتداء...

(١) «هداية الحيارى» مقدمة الكتاب.

والمهزومون روحياً وعقلياً حين يكتبون عن (الجهاد في الإسلام) ليدفعوا عن الإسلام هذا الاتهام.. يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله، ومن أجل هذا التخليط - وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! - يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: «الحرب الدفاعية».. والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات..

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين..

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من: أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية إنها سداجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير (الإنسان).. نوع الإنسان.. في الأرض.. ملء الأرض.. ثم تقف أمام العقبات تجاهدها باللسان والبيان!.. إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد، تخاطبهم بحرية، وهم

مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات.. فهنا ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من الأغلال<sup>(١)</sup>.

ولقد وقفت على مقال نافع في موقع (المختصر) أحسب أن صاحبه وفق لبيان الحق في هذه المسألة، ومن باب الفائدة أنقله مختصراً: (إنَّ الإسلام يحتاج اليوم إلى من يقدمه للناس كما هو بعزّة ووضوح، نعم بحكمة ولكن دون تحريف أو انهزام، والذي أعتقده أنَّ الفرصة هذه الأيام سانحة لمثل هذا التقديم، فلا ينبغي تضييعها، والإسلام ليس ضعيفاً كي نضعه في قفص الاتهام، ثم نجهد في الدفاع عنه لإخراجه منه!

وهكذا أوقعونا في الفخ فقالوا: إنَّ إسلامكم انتشر بالسيف، ودينكم دين إرهاب، وإنَّ نبيكم لم يأتِ إلا بالدمار للعالم! وأنتم معشر المسلمين تحبون الدماء! فقام المخلصون، وهم إما جهلة، وإما منهزمون، وإما يريدون تجميل الإسلام إلى أن يفتح الله، وإما -وللإنصاف- مجتهدون، يَرُدُّون: كلا ديننا لم ينتشر بالسيف، انظروا إلى شرق آسيا لم يدخله الإسلام إلا عن طريق التجار، وكلا نحن لسنا إرهابيين، نحن ألطف من خلق الله! ونبينا نبي الرحمة، حتى الحيوانات لم تهملها رحمته! أما عن حبنا للدماء فإشاعات مغرضة والله!

ألا دعونا مما قاله رئيس الفاتيكان وأجداده وأبناؤه والمستشرقون من قبله، وقولوا لنا: ماذا قال الله سبحانه؟ وماذا قال رسوله ﷺ؟ دعونا من

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٣٣، ٣/ ١٤٤٠) باختصار.

فقه الأزيمة هذا الذي يقودكم، وخذونا إلى فقه الرشد الذي دلّنا الله عليه ورسوله، وحمله الصحابة ومن بعدهم من كبار الأمة وفقهائها، وعليه ساروا حتى وهم في أصعب حالاتهم أيام الصليبيين والتتار، ذلك أنّ الهزيمة لا تقاس بكم احتل من أشبار، وإنما بكم احتل من قلوب!

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

لقد بينت الآية القاعدة التي يقوم عليها الإسلام، وهي الكتاب، والقوة، وقد قال ابن تيمية رحمه الله: «قوام الدين: كتاب يهدي وسيف ينصر»، لقد جاء الإسلام معلناً للحق، ومؤيداً للحق في نفس الوقت، وما الطغيان الذي نراه اليوم إلا لأن الحق لا قوة له، ولذلك أمر الله المسلمين بالإعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ بَأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

أمر بذلك لأنه لا يوجد مبدأ دون قوة، وسواء كان هذا المبدأ حقاً أم باطلاً، أرضياً أم سماوياً، فلا بد له من قوة تحميه.

الإسلام دين السيف؛ لأنه جاء لقيادة البشرية نحو خيرها، فمن حقها أن تبلغها الدعوة، ولا يمكن هذا إلا بتحطيم الأنظمة التي تحول بين الناس وبين أن يسمعوا كلمة الله، والإسلام دين السيف لمنع الفتنة

التي يقتربها المفسدون في الأرض، وليكون الدين كله لله» لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهل نريد هذا فعلاً؟! مع كل هذا الضعف: نعم! ومع كل هذا الهوان: نعم! ونحن تحت القصف: نعم! ونحن مشردون: نعم! هذا هو فقه الرشيد الذي لا يتغير في الأزمان! وغيره فقه أزمة لا يمثل الإسلام، وإنما يمثل النفوس المسحوقة..

والإسلام دين السيف؛ لأن الصراع بين الخير والشر لا ينقطع، فالحياة قائمة على قانون التدافع، ولو تمكن الشر وحده من الأمر، كما يحصل الآن، لفستت الحياة، وما الطغيان الذي نراه اليوم إلا لانعدام القوة المقابلة. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو نُصْرَةٍ﴾ [الحج: ٤٠].. والإسلام دين السيف؛ لأنه فعل رسول الله ﷺ، نبي الرحمة ونبي الملحمة؛ نبي الرحمة في وقتها، ونبي الملحمة في وقتها، وهذا مقتضى الحكمة التي بعث بها ﷺ:

فإن قيل: حلم فقل: للحلم موضع... وحلم الفتى في غير موضعه جهل فهو ﷺ الذي أمر بقتال الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله.. كما صرح عنه، والنص عام والقول: إنه خاص بوقته ضعيف، وهو الذي أمر

كما قال الصحابي فيما رواه البخاري: (أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية)<sup>(١)</sup>.

لقد آن للمسلمين أن يتحولوا إلى موقف المهجوم بدلاً من موقف الدفاع، الذي لصقوا به دهرًا طويلاً، وليقولوا للعالمين: إذا كان الإرهاب لحفظ الحق، فنحن إرهابيون، ذلك أن الإرهاب ليس وصفاً مطلقاً، فقد يكون خيراً وقد يكون شراً! كالقتل، منه ما هو شر، ومنه ما هو خير، فقتل النفس البريئة شر، وقتل القاتل خير! وهكذا..

إن من يتهمنا بالإرهاب هم آخر من يحق لهم الكلام عنه، فلسنا نحن الذين استعمرنا وخربنا العالم في القرون الوسطى، وأنهكنا الشعوب وسرقنا خيراتها، ولسنا نحن الذين اصطحبنا رجال الدين ليخدعوا الشعوب باسم الرب! ولسنا نحن الذين أشعلنا أفذر حربين في قرن واحد أكلتا ملايين البشر، ومحقتا خيرات الدنيا! والقائمة تطول)<sup>(٢)</sup>..

(هذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام.. وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع، إنما يقفون به دائماً موقف المظنن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعاً، وعلى نظم الأرض جميعاً، وعلى مذاهب الأرض جميعاً، ولا يندفعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله، والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي،

(١) البخاري (٢٩٢٥).

(٢) انظر: موقع المختصر مقال (بل الإسلام دين السيف) إبراهيم العسوس.

والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به، والذي لا يجني أحد على البشرية جناية من يجرمها منه، ويحول بينها وبينه. فهذا هو أعدى أعداء البشرية، الذي ينبغي أن يطارده المؤمنون، الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الإيمان، فذلك واجبه لأنفسهم وللشريعة كلها، وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله..

**جاهد الإسلام أولاً** ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم، وأموالهم، وعقيدتهم. وقرر ذلك المبدأ العظيم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم، وإذا كان المؤمن مأذون في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه..

**وجاهد الإسلام ثانياً** لتقرير حرية الدعوة -بعد تقرير حرية العقيدة- فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها؛ ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر. ولا إكراه في الدين ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة؛ كما جاء من عند الله للناس كافة. وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا، وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد

الناس عن الإسماع إلى الهدى، وتفتن المهتدين أيضاً. فجاهد الإسلام  
ليحطم هذه النظم الطاغية؛ وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية  
الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة. وما يزال الجهاد مفروضاً  
على المسلمين ليلغوه إن كانوا مسلمين!

وجاهد الإسلام ثالثاً ليقم في الأرض نظامه الخاص ويقرره  
ويحميه.. وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان؛  
حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال؛ ويلغي من الأرض  
عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها...<sup>(١)</sup>.



(١) انظر: «في ظلال القرآن» (١/ ٢٩٤-٢٩٦) باختصار شديد.

## المبحث الثالث

### التصدي للغزو الموجه لإفساد الأخلاق والأعراض

#### وإشارة الشهوات

سبق أن فصلت الكلام في ذكر وسائل المفسدين ومظاهر إفسادهم في مبحث سابق، وإن من الجهاد أن ينبري المصلحون والدعاة والمربون والمعلمون والآباء والأمهات لمجاهدة هذه الحرب الشرسة على الأخلاق وتدمير الأمة بنشر الشهوات والإباحيات، وهذا النوع من الجهاد يقوم على فريضة الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضح المفسدين، وتحذير الناس وتحصينهم من شر فتنهم، ولا حامي بعد الله ﷻ إلا القيام بهذه الشعيرة، وتطبيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعات المسلمين، فهذا هو صمام الأمان بإذن الله تعالى.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ...﴾ الآية [هود: ١١٦].

ويقول - سبحانه -: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَوْنَهُمُ الرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣]. وقال ﷺ: «وَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»<sup>(١)</sup>.

يقول ابن كثير رحمه الله عند الآية الأولى: (يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض).

وقوله: (إلا قليلاً) أي قد وجد من هذا الضرب قليلاً لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] <sup>(٢)</sup> .هـ.

ويقول عند تفسير آية المائدة: (يعني: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك - أي السحت وقولهم الإثم - والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني: (الربانيين أنهم بسئ ما كانوا يصنعون في تركهم ذلك. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٣) وقال: هذا حديث حسن، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥١٤٠).

(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» (ص ٦٥١).

قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ  
وَالْأَحْبَارُ...﴾ (الآية) (١).

وأمثال هاتين الآيتين في القرآن كثير.

والمقصود بيان مسؤولية العلماء والدعاة والمربين من معلمين وآباء  
وأمهات في تحصين المجتمعات المسلمة من شرور المفسدين، وما يسعون  
به في نشر المنكرات ومحاولات فرضها على الناس حتى تألفها النفوس،  
وتنعدم من القلوب إنكارها، والمتابع اليوم لحركات المفسدين وأكابر  
المجرمين في مجتمعات المسلمين يرى شيئاً خطيراً، يجب أن يتنادى أهل  
العلم والغيرة للتصدي له وتحصين المجتمع من شره، ألا وهو محاولة  
المفسدين فرض المنكر الذي يريدونه، وجعل المسلمين أمام الأمر الواقع  
مستغلين في ذلك مناصبهم أو قربهم من صنع القرار متغافلين ومتجاهلين  
وغير مكترئين بإنكار المنكرين وصيحات المحذرين من هذا المنكر، وفي  
ظنهم أن هذا الإنكار وهذه الصيحات تتلاشى شيئاً فشيئاً عندما يفرض  
المنكر فرضاً، ويتطبع مع الوقت في حياة الناس، ويصبح مألوفاً بعد أن  
كان منكراً ومبغوضاً، وهنا مكمن الخطر إذ إن تحول المنكر إلى معروف  
ومألوف أخطر بمئات المرات من تلبس بعض الناس له مع كرههم له  
وشعورهم بالإثم وهم يفعلونه.

ودفعاً لهذا الخطر العظيم ينبغي اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمدافعة أي  
منكر يراد فرضه في حياة الناس، ومنها:

(١) المصدر نفسه (ص ٣٨٨).

أولاً: الاحتساب على من يكون وراء إقرار هذا المنكر، وإبراء الذمة بإنكاره وعدم الرضا به ومحاولة ثنيه عن قراره، وهذا هو المرتبة الثانية في الإنكار، ألا وهو التغيير باللسان أو الكتابة، وتكرار ذلك وعدم اليأس من التغيير.

ثانياً: وفي حالة الإصرار على فرض المنكر وعدم الاستجابة لنصح الناصحين وإنكار المنكرين تبذل المحاولات في تأجيله أو تخفيف آثاره أو تخفيف مفسده.

ثالثاً: وفي حالة تجاهل ذلك كله والبدء في تطبيقه وإنفاذه، فإنه يبقى واجب كبير على المصلحين، ألا وهو تحصين المجتمع من هذا المنكر واعتقاد مخالفته للشرع، فإن هذا يضمن بإذن الله تعالى إفشاله وإضعافه، حتى ولو تلبس به بعض الناس، إذ إن فعل المسلم للمنكر وهو يعتقد تحريمه وإثم فاعله أهون بكثير من فعله له من غير إنكار له ولا تأثم. ولكي يتحقق هذا التحصين وتقويت الفرصة على المفسدين في تطبيع المنكر، فإنه يجب على المصلحين بمختلف تخصصاتهم ومجالاتهم أن يتعاونوا في ذلك، فالخطيب في منبره والواعظ في مسجده، والكاتب في مقالته، والشيخ في درسه، والمربي والمعلم في مدرسته، والرجل في بيته وقرابته، كل أولئك عليهم أن ينفروا في بيان المنكر للناس، وبيان إثم فاعله، وذلك ليبقى في القلوب تعظيم حرمة الله ونواهيه، ويبقى في القلوب كره المنكر، ويقطع الطريق على من يريد للناس أن يألفوا المنكر وأن يطبعوه في حياتهم من غير إنكار ولا رفض، لأن القلب إذا خلى من إنكار المنكر فإنه على خطر بفقد إيمانه

بالكلية، وهذا ما يفهم من قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»<sup>(١)</sup>.

ولو فرض أن واحداً من هذه الثلاثة السابق ذكرها لم يتحقق فيكفي الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أنهم أعذروا إلى ربهم ﷻ وأبرأوا ذمتهم، وكفى بذلك خيراً وأجراً، قال - سبحانه -: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

واستجابة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ومشاركة مع إخواني الدعاة، الذين أقلقهم هذا الخطر، وراحوا يبحثون عن كل ما من شأنه مدافعة هذا الخطر وصده عن المسلمين، أكتب هذه الخواطر السريعة التي كانت محل تفكير وحوار، والتي أحسبها تسهم في إيجاد مشروع تحصيني وقائي لأسرنا ومجتمعاتنا أمام هذا الخطر الداهم، أسأل الله ﷻ أن يلهمنا صحة الفهم وحسن القصد، فأقول وبالله التوفيق:

إن المدافعة لهذا السيل الجارف من الإفساد يجب أن ينفر إليه جميع شرائح المجتمع من علماء ودعاة ومحتسين ومربين وآباء وأمهات، لأن الفساد من الضخامة والخطورة ما لا يكفيه جهود أفراد أو طائفة معينة، بل يحتاج إلى تضافر جهود المصلحين الذين يهتمهم إصلاح أنفسهم وأولادهم وأسرهم ومجتمعاتهم. وأرى أن تتم هذه المدافعة عبر جبهتين:

(١) رواه مسلم (٤٩).

**الجهة الأولى:** جهة الاحتساب والإنكار المباشر على المنظرين أو المنفذين لها أو المساهمين في تمريرها وتسهيلها، وذلك بالإنكار شفافاً بزيارتهم والاحتساب عليهم، أو الكتابة إليهم ومخاطبة أهل الحل والعقد من أمراء وعلماء، وإظهار الامتناع والإنكار، وهذا أمر يجب أن ينفر له طائفة من الدعاة والعلماء والمشايخ والقضاة وطلبة العلم والوجهاء، وذلك يتطلب تعاوناً وتشاوراً بين أهل العلم في كل مدينة، وأن يكون هناك مجالس وتوزيع للأدوار والجهود. كما يتطلب جهات مساندة تهيم لهم المعلومات والوثائق، وحصر ما يجد من منكرات ومعلومات وترتيبها وتنظيمها، وقد وجد مثل هذا والحمد لله في بعض البلدان والمناطق، وآتت ثمارها، ولكنها غير كافية في مقابل ذلك الفساد المستطير، حيث نرى عجلة التغريب في بلدان المسلمين في تسارع شديد، وتجدد من يدعمها ويسهل فسادها بالمال والإعلام.

**الجهة الثانية:** جهة التحصين والوقاية للمجتمع من الفساد ببيان المنكرات للناس وتحذيرهم منها، وأحسب أنه لا زال هناك تقصير شديد في هذه الجهة مع أن الثمار المرجوة منها كثيرة جداً واستجابة الناس لها كبيرة والحمد لله، ولا يعني هذا التقليل من جهود القائمين في الجهة الأولى فهم تاج الرؤوس وأجرهم على الله ﷻ وحسبهم أن يفوزوا بالإعذار عند الله ﷻ وإبراء الذمة إذا حوسبت الذمم، مع ما تثمره جهودهم من مراغمة أهل الفساد والتخفيف أو التأخير لبعض المنكرات، وإنما المقصود أن لا تنسى جهة التحصين والوقاية التي قد تكون أكثر ثمرة وآثاراً، وبخاصة أن المتحركين من المصلحين في الجهة الثانية يمتلكون

وسائل كثيرة ومجالات متعددة في مخاطبة الناس وتحذيرهم وتحسينهم لا يملكها غيرهم. ولو وظفت التوظيف الصحيح وتضافر الغيورون والمصلحون في تنفيذها، وتوزعت الأدوار فيها لكان لها نتائج باهرة تحبط على المفسدين أهدافهم وترد كيدهم في نحورهم.

وهنا أذكر بعض المقترحات في تفعيل دور هذه الجبهة وكيفية الاستفادة من الوسائل الكبيرة المتاحة في مخاطبة المجتمع وتوجيه الناس. ومن نافلة القول: أن نُشَبِّهَ سَيْلَ الفسادِ المسلط على مجتمعات المسلمين وتنوع الناس في مقاومته بسيل جارف ينتهي إلى تغريق أراضي وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه سيخرب دورهم ومزارعهم وأموالهم، فانقسموا إلى فرقتين.

**الأولى:** فرقة رأت أن لا خلاص من خطر هذا السيل، إلا أن يهب الجميع في قطعه من منبعه وأصله، فتعذر ذلك غاية التعذر، وأبت طبيعة السيل وقوته عليهم ذلك، فكلما سدوه من موضع نبع من موضع آخر، وانشغل أهل القرية بشأن هذا الوادي عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار وتحسين البيوت، ويمكن أن يكون في عمل هذه الفرقة تخفيف لشدة السيل أو سد لبعض منابعه، لكن لا يمنع عن بيوت الناس وممتلكاتهم.

**الثانية:** رأت أن صرف الجهود كلها في عمل الفرقة الأولى قد أضاع عليهم كثير من المصالح، ولم يستطيعوا منع السيل فاتجهوا إلى بيوتهم في تقويم أساسها وقواعدها ورفع أسوارها عن مجرى السيل كما اتجهوا إلى صرف سيل الوادي عن مجراه المنتهي إلى البيوت والعمران، وذلك

بتحذير الناس من شره القادم وبتوجيه الناس إلى أن يحصنوا بيوتهم من هذا السيل ويتضافر الجميع على صرفه عن بيوتهم وعمرانهم إلى الرمال المحيطة بهم أو السبخات أو الحفر التي يجد السيل فيها مصرفاً له يضيع فيه ويتفرق<sup>(١)</sup>.

والمقصود من إيراد هذا المثال التأكيد على أهمية العمل في جبهة التحصين والوقاية للناس والمجتمعات من سبل الفساد الموجهة إليهم، وأن يعطى حقه من الاهتمام مع بذل الجهد من أهل العلم في الجبهة الأولى، وذلك بالاحتساب على المفسدين ولو للتخفيف أو التأخير، وأهم من ذلك إبراء الذمة والإعذار إلى الله ﷻ والمقصود توزيع الأدوار، وأن لا ينشغل الدعاة بجبهة عن جبهة.

وأسوق فيما يلي ما يحضرني من الوسائل القوية التي يملكها المصلحون من الدعاة وطلبة العلم، ولا يملكها غيرهم من المفسدين. وكيف يمكن تفعيلها وتنشيطها وتوظيفها.

#### الوسيلة الأولى: المنابر الدعوية والإعلامية:

ويقصد بها تلك المنابر التي يخاطب فيها فئام من الناس على مختلف شرائحهم، ويحصل من خلالها تحذير الناس ووعظهم، وبيان خطر المنكرات على الفرد والبيت والمجتمع، وبيان ذلك بالفتاوى الشرعية المستندة إلى الأدلة الشرعية.

(١) مستفاد بتصرف من كتاب «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٢).

ويدخل تحت مسمى المنابر الإعلامية ما يلي:

#### أ- خطبة الجمعة:

حيث أثرها العظيم على الناس، ومما تتميز به دقة الإنصات من السامعين وتركيزهم على ما يقال فيها، وهذه المنابر نعمة من نعم الله ﷻ على المسلمين ووسيلة عظيمة الفائدة، يمتلكها الدعاة إلى الله ﷻ ولا يملكها المفسدون. وأقترح لتفعيل دور الخطبة واستثمارها في إصلاح الناس وتبغيض الفساد والمنكرات لهم النقاط الآتية:

- أولاً: إيجاد رابطة مستمرة بين الخطباء في كل حي تجتمع في كل أسبوع، وذلك للتنسيق وتبادل الخبرات وتبادل الخطب، وتحديد المواضيع المهمة للخطبة وترتيب الأولويات في ذلك، كما يقترح رابطة أوسع للخطباء على مستوى المدينة، وذلك في كل شهر مرة، وذلك لتوسيع دائرة التشاور وتنسيق الجهود.
- ثانياً: أن يتخصص أناس لجمع الخطب الجيدة القديم منها والجديد، التي يحتاج إليها المجتمع وطبعها وجعلها في متناول الخطباء، ليرجعوا إليها في كتابة الخطبة.
- ثالثاً: أن يتخصص أناس لجمع الفتاوى القديمة والجديدة للعلماء، التي يبين فيها أهل العلم الحكم في المنكرات القديمة والجديدة، التي تعشعش بين المسلمين أو هي في بدايتها، وذلك لرفضها من الناس ومقاطعتها وتزويد الخطباء بها لقراءتها على الناس.

- رابعاً: التعاون مع القائمين على إذاعة القرآن بالاقتراح عليهم تسجيل بعض الخطب المهمة، التي يتفق عليها سلفاً لتذاع على الناس وتكرر عليهم.
- خامساً: طبع الخطب الجيدة والمهمة في رسائل صغيرة وتوزيعها مجاناً أو بيعها بسعر رمزي.
- سادساً: الحرص على محلات التسجيل على تسجيل الخطب المهمة ونشرها بين الناس، وأن يصاحب ذلك تغطية من الدعاية الجيدة والتسويق القوي.
- سابعاً: يفعل دور أئمة المساجد وحلقات التحفيظ في توزيع أشرطة الخطباء الجيدة على بيوت الحي.

#### ب- الدروس والمحاضرات والجولات الوعظية:

وهذه من الوسائل المهمة التي لو رتبت مواضعها وأماكنها وأوقاتها لظهر لها وقع عظيم في تحصين الناس ووقايتهم من الفساد، وهي -والحمد لله- كثيرة ومنتشرة، ولكن تحتاج إلى تفعيل وتنشيط وتنظيم؛ لكي يكون أثرها أكبر مما هي عليه الآن، ومن الوسائل المقترحة لتفعيلها ما يلي:

- أولاً: اختيار المواضيع المهمة للمحاضرات والدروس وتوظيف الدروس في مخاطبة الناس ووعظهم، وتحذيرهم من المنكرات، سواء كان ذلك عندما يأتي مناسبة في الدرس أو تخصيص آخر الوقت في الدروس للحديث عن المنكرات والتحذير منها، أو

تعد أسئلة مهمة تطرح على الشيخ ليجيب عليها في نهاية الدرس، ويركز على مظاهر الفساد والموقف منها.

• ثانياً: تحريك بعض طلبة العلم المؤثرين بما عندهم من العلم والديانة والبلاغة في أن يشاركون وينفروا، وأن يعيدوا النظر في سلبيتهم وقعودهم.

• ثالثاً: التنسيق مع إذاعات القرآن والقنوات الإسلامية بنقل الدروس والفتاوى والمحاضرات المهمة في إذاعة القرآن.

• رابعاً: مساعدة المحاضر في جمع المادة العلمية والفتاوى المهمة التي يستخدمها في إقناع الناس برفض الفساد وتحريمه ومقاطعته.

• خامساً: قيام محلات التسجيل بتسجيل مثل هذه الدروس والمحاضرات المهمة والدعاية لها وتسويقها بين الناس.

• سادساً: نشر هذه المحاضرات في بيوت الحي عن طريق مساجد الحي وحلقات التحفيظ ودعمهم مادياً.

• سابعاً: يحسن أن يكون هناك رابط أسبوعي أو شهري بين طلبة العلم، الذين يقومون بالدروس والمحاضرات للتنسيق بينهم والتشاور في المواضيع المطروحة.

### ج- الاستفادة من إذاعات القرآن والقنوات الإسلامية:

وميزة هذه الوسائل الإعلامية أنها تخاطب الفئات الكبيرة من الناس، لذا صارت من أهم الوسائل التي ينبغي أن يعتني بها الدعاة إلى الله ﷻ

واستثمارها في توجيه الناس وتحصينهم، وتحذيرهم من الفساد الموجه لهم، ورد شبهات المفسدين، ومن أوجه الاستفادة من هذه المنابر ما يلي:

١- ما يكون فيها من برامج الإفتاء، ويحسن أن توظف هذه البرامج في تحذير الناس من صور الفساد المسلطة عليهم وبيان الحكم الشرعي فيها والتركيز على هذا النوع من الفتاوى.

٢- تقديم الدروس العلمية المبسطة التي توعي الناس بدينهم (في التفسير والعقيدة والفقه والآداب) وترفع عنهم اللبس والتضليل.

٣- إجراء المقابلات والندوات والحوارات في القضايا التي تحذر المسلمين مما يراودهم من الفساد والشر والرد على الشبهات وفضح أهلها.

٤- ولتفعيل دور هذه المنابر يحث أهل القدرات الإعلامية من الدعاة للدخول فيها والتعاون مع القائمين عليها في تهيئة البرامج وتقديم المواد التي تحقق الأهداف.

٥- نقل الخطب والدروس والدورات الشرعية التي تعقد في المساجد.

### الوسيلة الثانية: إحياء اللقاءات الأسرية ولقاءات الأحياء:

حيث ثبت بالتجربة عظيم فائدتها في تأليف القلوب والتعاون على الخير والتحذير من الفساد والمنكرات، ولو أن أهل الاستقامة في كل

أسرة وكل حي - وهم كثير والحمد لله - كونوا هذه الروابط واللقاءات واستثمروها في وقاية الأسر والجيران نساءً ورجالاً من شر الفساد والمنكرات لكان لها الأثر العظيم. ومن الأعمال الخيرة التي تقوم به هذه الروابط واللقاءات ما يلي:

١ - توزيع الأشرطة والأقراص المدحجة والكتيبات التي تنشر الفضيلة وتحارب الرذيلة.

٢ - توزيع الفتاوى التي تبين حرمة ما جدَّ في حياة المسلمين من منكرات البيوت.

٣ - إقامة المسابقات الهادفة التي تنبه السامعين إلى أمور شرعية قد يجهلونها أو يغفلون عنها.

٤ - استضافة بعض طلبة العلم المؤثرين ليتحدث عن بعض المنكرات وضرورة إنكارها، وتحصين البيوت وتربية الأولاد والنشأة على حب الفضيلة وبغض الفساد والرذيلة.

العناية بشؤون المرأة وتوعيتها بأحكام الإسلام، وتحذيرها من منكرات اللباس والزينة، وما يراد لها من إخراجها واختلاطها بالرجال، ويمكن أن تنشأ روابط نسائية في الأسرة، تتولى المستقيمات في كل أسرة تحقيق هذه الأهداف بما سبق من الوسائل.

٥ - مراقبة الحي وما فيه من المنكرات والتعاون مع الهيئات لإزالتها.

### الوسيلة الثالثة: أئمة المساجد:

لا يخفى دور إمام المسجد في نشاط المسجد ونشاط الحي الذي فيه المسجد، وهذا ملموس من بعض الأئمة الناشطين، فلو أن إمام كل مسجد قام بدوره في جماعة الحي لكان في ذلك خير عظيم وسد منيع، ومن أهم الأنشطة التي يقوم بها إمام المسجد ما يلي:

- ١- القراءة على جماعة المسجد في الكتب والفتاوى، التي تحذر من الفساد والمنكرات في البيوت أو الأسواق وغيرها.
- ٢- التعاون مع دورية الحي في دعم أنشطة المسجد وحلقات التحفيظ ومتابعة المنكرات في الحي.
- ٣- استضافة طلاب العلم ليلقوا كلمات ومحاضرات وفتاوى تدعو الناس إلى الخير، وتحصنهم من الفساد وتحذرهم منه.
- ٤- متابعة المحاضرات والدروس في المساجد الأخرى، وتبليغ جماعة المسجد بها مشافهة، أو عن طريق الملصقات الإعلانية.
- ٥- التعاون مع حلقات التحفيظ في توزيع الكتيبات والأشرطة على منازل أهل الحي.
- ٦- تفقد الأشخاص الذين لا يصلون مع الجماعة ومناصحتهم ودعوتهم إلى لقاءات أهل الحي.
- ٧- إقناع طلاب العلم من جماعة المسجد على فتح دروس في المسجد، سواء كانت لعوام المسلمين أو المتعلمين.

٨- ولتفعيل دور الإمام في المسجد يحسن تكوين رابطة لأئمة المسجد في الأحياء المتقاربة والتشاور معهم، وتبادل الخبرات في أنشطة المساجد.

٩- الاستفادة من المشرفين على حلقات التحفيظ في تقديم الفتاوى واقتراح الرسائل المهمة التي تقرأ على جماعة المسجد.

#### الوسيلة الرابعة: حلقات التحفيظ ومكتبات المساجد:

لا يخفى دور هذه الحلقات المباركة في حفظ أبناء الحي بحفظهم لكتاب الله ﷻ وتربيتهم وتحسينهم من الفساد، ومع ذلك يمكن أن يستفاد من هذه الحلقات ليظهر أثرها في أهل الحي، وذلك بالوسائل الآتية:

- توزيع الأشرطة والأقراص المدججة والكتيبات على بيوت الحي.
- إعطاء طلاب التحفيظ بعض الأشرطة والفتاوى والكتب لأخذها إلى أهلهم مما من شأنه تحذير البيوت من المنكرات والفساد.
- الاهتمام بأولياء أمور طلاب التحفيظ والاجتماع بهم في دورية شهرية للعناية بأبنائهم والتناصح معهم في إصلاح البيوت وتطهيرها من الفساد.

#### الوسيلة الخامسة: مواقع شبكة المعلومات:

وقد ظهر أثر هذه المواقع في الآونة الأخيرة لما ظهرت المواقع الإسلامية للمشايخ والمؤسسات الإسلامية والمواقع التي تهتم بالمرأة والحسبة. لذا يجب الاهتمام بها وتفعيلها وتقديم المادة المناسبة التي فيها

تحذير المسلمين مما يراد بهم من الفساد وتخصص بعض أهل العلم في تتبع شبهات المفسدين وشهواتهم والرد عليها.

#### الوسيلة السادسة: المعلمون في المدارس:

المعلم المسلم صاحب الرسالة لا ينظر إلى وظيفته بأنها مصدر للرزق فحسب، وإنما هي من أهم المجالات التي يمكن تربية النشأ فيها وتحصينهم من الفساد والمنكرات. كما يمكن التأثير من خلال التعليم على أسر الطلاب وبيوتهم بإيصال بعض الفتاوى والأشرطة عن طريق أبنائهم، وكذلك يستفاد من مجالس الآباء في المناصحة مع أولياء الأمور في التخلص من المنكرات والفساد.

#### الوسيلة السابعة: الحسبة والاحتساب:

من خصائص هذه الأمة أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكلما شاع الاحتساب وانتشر قل الفساد واندحر المفسدون، سواء كان ذلك على يد مراكز الهيئات أو عن طريق المحتسبين، لذا ينبغي للدعاة وطلاب العلم والمحاضرين أن يحثوا الناس على مختلف طبقاتهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلاً فيما يخصه وحسب علمه وقدرته.

#### الوسيلة الثامنة: الكتاب والمؤلفون:

إن الإكثار من الكتب والرسائل والمطويات التي تحذر من الفساد وتكشف خطط المفسدين لتعد من أهم الوسائل التي توعي الأمة وتحذرهم من كيد المفسدين وتلييسهم وتضليلهم، وذلك بما يكون في هذه

المؤلفات من بيان حكم الله ﷻ في مظاهر الفساد الذي يروج له المفسدون، وكشف شبهاتهم التي يلبسون بها على الناس.

#### الوسيلة التاسعة: أماكن الانتظار العامة:

وذلك مثل الانتظار في عيادات الأطباء، وصرف الدواء في الصيدليات الحكومية ومحلات الحلاقة ومكاتب العقار وما شابهها. حيث من المفيد تزويد هذه الأماكن بمطويات ورسائل وفتاوى تناسب حاجة الناس، وتحذيرهم وتحصينهم من سبل الفساد.

#### الوسيلة العاشرة: الدور النسائية لتحفيظ القرآن:

لم يعد خافياً أثر هذه الدور المباركة -إن شاء الله- في تحصين المرأة المسلمة من كيد أعدائها، وتعليمها دينها، وتحذيرها من مظاهر الفساد الموجه لها وللأسر المسلمة، والعناية بالمرأة المسلمة له أثر في نفسها، كما أن له أثراً كبيراً في إصلاح الأسر والبيوت، حيث تنقل المرأة ما تسمع وترى وتقرأ في هذه الدور، وما يوزع فيها من أشرطة وكتيبات وفتاوى إلى أسرته وأولادها، لذا لزم الأمر العناية الشديدة بهذه الدور.

#### الوسيلة الحادية عشرة: رسائل الجوال، ومواقع التواصل الاجتماعي في الشبكة العنكبوتية:

لقد ظهر في الآونة الأخيرة أثر رسائل الجوال ومواقع الاتصال في نشر الخير والشر، لذا ينبغي توظيفها من قبل المصلحين في نشر الفضيلة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدلالة على الكتب والفتاوى والدروس المفيدة والتحذير من الفساد وتعريه أهله وتبيين المنكرات ودفع الناس لإنكارها.

### تنبيهات مهمة:

**الأول:** لابد في الوسائل السابقة من عمل مرتب ومنظم، ترتب فيه الأولويات وتوزع فيه الأدوار، ويجند فيه الغيورون من الصالحين في إحيائه وتنفيذه بتوجيههم واستثمار طاقاتهم، ولا يكتفي بالجهود الفردية.

**الثاني:** العناية بالجانب التربوي في أوساط الدعاة وطلبة العلم وأهل الاستقامة من شباب الأمة وفتياتها، والعناية بصحة الفهم والتصورات وحسن السلوك والأخلاق، وأن لا يكون العمل الاحتسابي والإعلامي سبباً في انشغالنا عن أنفسنا وتربيتها وتربية غيرنا.

**الثالث:** إعداد جيل إعلامي قوي يجمع بين العلم الشرعي والصمود على الثوابت الشرعية، والبعد عن الضعف والانزيمية، والاستجابة لأهواء الناس، وبين الوعي الإعلامي والخبرة الإعلامية التي تخاطب الناس، وتؤثر فيهم وتكسبهم.

**الرابع:** لا يقتصر في مخاطبة الناس ببيان الحكم الشرعي في المنكرات وتحذيرهم منها، بل ينبغي أن يتوجه الخطاب إلى القلوب وتقوية العبودية لله ﷻ فيها والاستسلام لشرعه - سبحانه - والإذعان والقبول له، وتخويفهم من الله ﷻ ومن عذابه، وتقوية محبة الله ﷻ وتعظيمه والخوف

من يوم الحساب والوقوف بين يدي الله - تعالى -، وتقوية واعظ الله في قلب المسلم وخشيته في الغيب والشهادة، لأن الإيثار الحق والرادع القوي عن معصية الله ﷻ هو خوف الله - عز وجل بالغيب ومراقبته في السر والعلن، وإن في هذه الشهوات التي انفتحت في زماننا اليوم بشكل لم يسبق له نظير، بحيث يسهل الحصول عليها بأدنى جهد، بل بغير جهد، حتى أصبحت في متناول اليد والسمع والبصر، إن في هذا ابتلاء من الله ﷻ ليعلم من يخافه بالغيب، كما ابتلى أصحاب محمد ﷺ بعدما حرم قتل الصيد على المحرم بحج أو عمرة بأن ابتلاهم فسهل لهم الصيد تناله أيديهم ورماحهم، وكان الصيد قبل ذلك ينفر منهم بمجرد رؤيتهم من بعيد.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبَّوْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤]. فنجوا من هذا الابتلاء لأنهم يخافون ربهم بالغيب، وكذا الحال في أجهزة الحاسوب والجوال المتاحة اليوم بيد الصغير والكبير، والرجل والمرأة، يحملها في جيبه ويخلو بها في غرفته، وبمجرد فتح موقع من المواقع السيئة يظهر ما يثير الشهوة ويوقع في الرذيلة، فإن لم يقو في قلوب الناس واعظ الله ﷻ والخوف منه بالغيب، فإن أي وسيلة بعد ذلك قليلة الفائدة أو عديمتها.

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يقول: يا أيها الناس!

اسلكوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب، قال: ويلك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي الذي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم»<sup>(١)</sup>.

والشاهد في هذا الحديث قوله: (ويلك لا تفتحه)، وأن القائل لذلك الداعي إليه واعظ الله ﷻ في قلب المسلم، فلا عاصم من فتح محارم الله إلا الخوف من الله ﷻ في قلب المسلم.



(١) رواه الحاكم في «مستدرکه» (٢٢٧/١) (٢٣٨)، ورواه أحمد بلفظ مقارب (١٨١٠١)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٤٨).